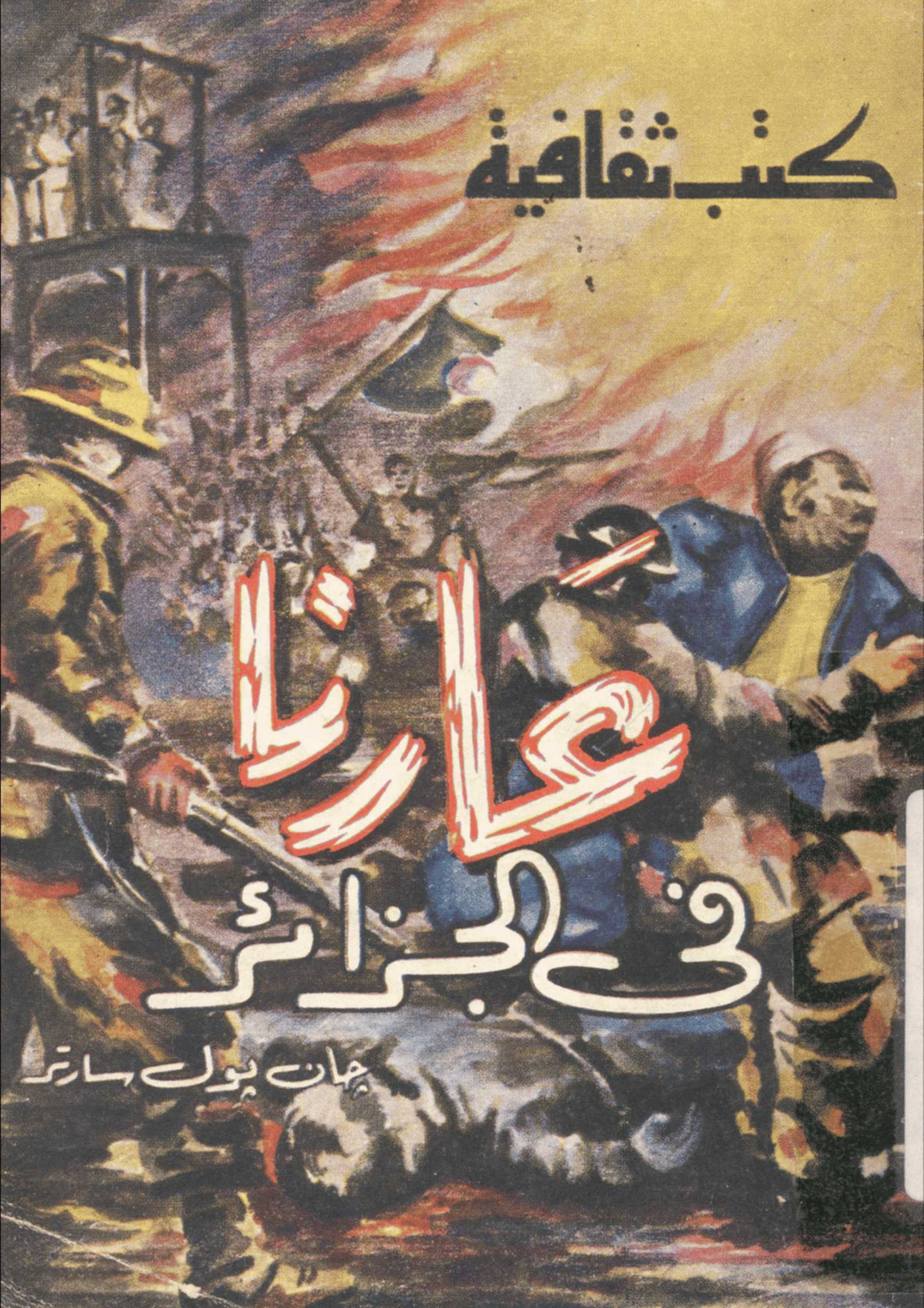

كتب ثقافية
عارنا في الجزائر
جان بول سارتر

عارنا في الجزائر

بقلم

جان بول سارتر

الجزائر فى ظل الاستعمار الفرنسى

انى أرفع لكم صوت التحذير والنذير من وسائل الاستعمار الجديدة .. فالاستعماريون المحدثون يقسمون المستعمرين الى فئتين : فئة صالحة ، وأخرى طالحة شريرة ! !

وان الفساد الذى استشرى فى المستعمرات انما مرده الى هذه الفئة الشريرة ، ولكى يضلوكم فى متاهات هذا الادعاء الكاذب الذى ذهبوا اليه تجدهم يتجولون بك بين ربوع الجزائر ، حيث تقف على بؤس الشعب وتراه رأى العين ، ثم يقصون عليك ألوان العذاب التى يتجرعها المسلمون على أيدى هؤلاء المستعمرين الأشرار حتى اذا فاض بك الأسى والحنق قالوا لك : « من أجل هذا ثار الجزائريون ؟ فقد أصبحوا لا يطيقون هذا الوضع الرجيم » فاذا جازت علينا خديعتهم هذه وانطلى علينا ضلالهم . خرجنا ونحن مقتنعون أولا بأن المشكلة الجزائرية مشكلة اقتصادية ، وأنه لابد من القيام بالإصلاحات لتوفير الخير للملايين . ثم هى بعد ذلك مشكلة اجتماعية ، فيجب مضاعفة المستشفيات والمدارس . وأخيراً فهى مشكلة نفسانية تخضع لنظرية « دومان » فى مركب النقص لدى طبقة العمال ، فالجزائرى الجاهل الذى يرزح تحت نير الاضطهاد ، ويتضور جوعاً يشعر بمركب النقص تجاه أسياده . وأن معالجته وتهدئته تكمن فى مواجهة هذه العوامل الثلاثة والتغلب على مشكلاتها فإذا امتلأ بطنه والتحق بعمل ،

وقضى على أميته ، فانه لن يخجل بعد من أن يكون انساناً أو فى درجة من الإنسان الأوربى ؟ وبهذا وحده تتجدد الأخوة الفرنسية الإسلامية القديمة .

ولـكن يجب علينا — فى زعمهم — ألانخلط ذلك الإصلاح بالسياسة فالسياسة أمر معنوى أو مجرد :

فماذا يجنى الجزائريون من وراء اشتراكهم فى الانتخـابات وهم يتضورون جوعاً ؟

ان الذين يتحدثون عن الانتخابات الحرة والجمعية التأسيسية والاستقلال الجزائرى ليسوا الا مثيرى القلاقل والفتن والشغب ، وهم الذين يعملون على عرقلة المساعى الطيبة لحل المشكلة الجزائرية .

تلك هى حجتهم وذلك منطقهم السقيم ، وقد أجاب عنها زعماء جبهة التحرير الوطنى بقولهم :

« اننا سنقاتل ونستميت فى القتال حتى وان نـكن سعداء فى ظل الحراب الفرنسية » .

ولاشك أنهم على حق فى اجابتهم السديدة . بل يجب أن نذهب بعيداً أكثر مما ذهبوا : ان الانسان لا يملك الا أن يكون شقيا فى ظل الحراب الفرنسية المشرعة . حقا ان غالبية الجزائريين يعيشون عيشة ضنكا ، وفى فقر مدقع ، ولـكن من الحق كذلك أن نؤمن بأن الإصلاحات الأساسيةلا يمكن أن تتم على أيدى « المستعمرين الصالحين » ولا على يد فرنسا نفسها مادامت وجهتها هى السيادة على الجزائر ، وأنه لن ينهض بها الا الشعب الجزائرى نفسه حين يظفر بحريته ، ويكون مستقلا استقلالا لا تشوبه شائبة .

لن الاستعمار لم يكن محض مصادفة . ولم يكن وليد آلاف المشروعات الفردية . ولنما هو نظام أقيم حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وبدأ يؤتى أكله حوالى عام ١٨٨٠ ، ودخل فى طور التصـــدع والانهيار فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو اليوم يرتد بالوبال على المستعمرين .

هذا ما أود أن تتعرفوا عليه فيما يتعلق بالجزائر . التى هى مع الأسف العميق أبلغ مثال وأبرزه للنظام الاستعمارى . أريد أن أوقفكم على قسوة هذا النظام الذى لابد أن ينتهى لى هذه النهاية المفجعة .

وكيف أن أخلص النيات إذا ولدت وترعرعت فى داخل هذه الدوائر الجهنمية استحالت إلى فساد مجسم . . فليس هناك مستعمرون صالحون وآخرون طالحون ؟ بل هناك مستعمرون فحسب .. ونحن اذا ماعرفنا ذلك حق المعرفة أدركنا من فورنا لماذا كان الجزائريون على حق فى هجومهم على بناء هذا النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، وكيف أن تحريرهم بل تحرير فرنسا ذاتها لن يتحقق إلا لذا قضى على الاستعمار قضاء مبرماً .

لن هـــذا النظام لم يكن تلقائيا عفويا فالحق أن « ملكية يوليو » و « الجمهورية الثانية » لم تتوصلا لى لدراك ماينبغى عمله فى الجزائر المحتـــلة .

ولقد كانت هنـــاك فـــكرة بتحويلها لى مستعمرة لسكنى الفرنسيين القائضين ، وكان « بوجو » Leroy-Beaulieu يؤمن (بطريقة الاستعمار الرومانى ، وعلى هذا الأساس منح الجنود العاملون فى الجيش الأفريقى مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ولـــكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع .

لقد كانت بغيتهم أن يدفعوا إلى إفريقية الأوربيين الفائضين من أجراء فرنسا وإسبانيا المتسكعين ، فأقاموا لهؤلاء الرعاع بضع قرى حول مدن الجزائر وقسطنطينة ووهران ، ولكن الأوبئة مالبثت أن فتكت بأعمهم الأغلب .

ثم حاولوا بعد يونية عام ١٨٤٨ أن يدفعوا إلى تلك البلاد موجة أخرى من العمال العاطلين الذين كانوا مثار إقلاق لقوات الأمن فى فرنسا .

وتقدر هذه الموجة بعشرين ألفاً ، ولكن الكوليرا فتكت بأغلبهم وعاد الناجون من الوباء إلى فرنسا ثانية .

وهذا الذى حدث أدى إلى أرجحة الخطط الاستعمارية ثم استقرت بعض الشيء فى عهد (الأمبراطورية الثانية) بفضل قيام الصناعة وازدهار التجارة.. فإذا الشركات الاحتكارية الاستعمارية الكبرى تقوم فى فترات متقاربة .

ففى عام ١٨٦٣ أنشئت شركة استعمارية للتسليف العقارى ، ومصرف وفى عام ١٨٦٥ أنشئت شركة تسليف مرسيلية،وشركة معادن حديدية فى (موكتا) ، وشركة عامة لسفن النقل البخارية .

وفى هذه الفترة أصبحت الرأسمالية والأمبريالية متلازمتين .

وقد نصب جول فيرى Jules Ferry نفسه ليكون الناطق بلسان هذا النوع الجديد من الاستعمار ، فقال :

(إن فرنسا التى نقلت جانباً كبيراً من رءوس الأموال فيها واستثمرتها فى الخارج ، عليها أن تنظر إلى المسألة الاستعمارية من هذه الزاوية .

إنها قضية الأسواق ، بالنسبة لبلاد كبلادنا ، فهى مضطرة بدافع من طبيعتها

وصناعاتها إلى تصدير كميات وفيرة عظيمة .. فإذا وجدت السيادة السياسية وجدت سيادة المنتجات أى السيادة الاقتصادية) فكان جول فيرى الركن الركين للجمهورية الثالثة . أول من عرف الاستعمار لا لينين ، ووجهة نظره تتفق إتفاقا تاما مع المتمردين فى عام ١٩٥٦ : فهو ينادى (بالعمل السياسى أولا) .

إنه يرى (أولا) القضاء على كل مقاومة وكل إرهاب .. ثم يقام النظام الاقتصادى بعد ذلك .

وما القضية بعد ؟ -

هل يجب إقامة صناعات فى البلاد المحتلة ؟

كلا : إن رءوس الأموال التى تستثمرها فرنسا لا يمكن أن توظف فى بلاد متخلفة إقتصاديا ، مشكوك فى مقدرتها وإمكانياتها ، وسيطول الزمن حتى تؤتى ثمارها ، ذلك أنه يجب إعداد كل شىء وتجهيزه من جديد وعلى فرض أن هذا ممكن التحقيق ، فما جدوى خلق منافسة مصطنعة لانتاج فرنسا نفسها ؟ .

إن (فيرى) كان واضحاً جداً فرءوس الأموال الجديدة لن تخرج من نطاق فرنسا ، وإنما هى ستستثمر فى الصناعات الجديدة التى تصدر كل منتوجها إلى البلدان المستعمرة .

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الغرض إقامة الاتحاد الجمركى (١٨٨٤م) وما يزال هذا الاتحاد قائماً حتى الآن .

ويؤمن هذا الاتحاد أو الحاجز الجمركى احتكار السوق الجزائرية للصناعة الفرنسية التى يعرقل انتشارها فى السوق العالمية الارتفاع الفاحش لأسعارها .

ولكن لمن تنوى هذه المصانع بيع منتجاتها ؟ أللجزائريين ؟

هذا أمر مستحيل : فمن أين لهم القدرة الشرائية ؟ إن هذه الخطة الاستعمارية ينبغي أن يقابلها خلق قدرة شرائية للمستعمرات ، والمستعمرون طبعاً هم الذين سيفيدون من كل الطيبات وبكل الأرباح والذين سيتحولون إلى مشترين في المستقبل . والواقع أن المستعمر هو أولا وقبل كل شيء مشتر اصطناعي ، خلقته فيما وراء البحار الرأسمالية التي تبحث لها عن أسواق جديدة .

وقد كان « بيريموف » (Peyerimhoff) منذ عام ١٩٠٠ يؤكد هذه النقطة بالذات في حديثه عن الاستعمار « الرسمي » فيقول :

« إن المستعمر قد أصاب ثروته من الحكومة ، إما عن طريق الهبة ، أو عن طريق هذه الامتيازات الهائلة التي تمنح له . وقد أقدمت الحكومة على القيام بتضحيات ضخمة من أجل المصالح الفردية كان لا يمكن أن تبذلها في بلاد مستثمرة استثماراً كلياً » .

وهنا يتجلى بوضوح الجانب الثاني من البناء الاستعماري :

إن على المستعمر أن يكون بائعاً لكي يكون مشترياً . فلمن سيبيع ؟ إنه سيبيع للمستوطنين الفرنسيين . وماذا يبيع من غير صناعة ؟ إنه سيبيع لهم منتجات غذائية ومواد أولية . وهكذا ينهض النظام الاستعماري تحت رعاية الوزير « فيرى » والمفكر النظرى « لوروى بوليو » Leroy-Bealieu وما التضحيات التي تقدمها الدولة للمستعمر ، هذا الإنسان الذى ترضى عنه الآلهة ويحبه المصدرون ؟ إن الجواب يسير وهو أن تضحى له بممتلكات المسلمين ، وتقدمها له قرباناً .

فقد اتفق أن كانت المنتجات الطبيعية فى البلد المستعمر مما ينبت على الأرض ، وهـــذه الأرض تخص « سكان البلاد الأصليين » . فنى بعض المقاطعات القليلة السكان ، ذات المساحات غير المزروعة ، تـكون السرقة أقل ظهوراً : فإن الذى يرى هو الاحتلال العسكرى ؛ والعمل الإجبارى . أما فى الجزائر فإن جميع الأراضى كانت مفلوحة قبل وصول القوات الفرنسية وهذا يعني أن مايزعمونه من قيامهم « بحرث » الأراضى وزرعها قد قام على عملية اغتصـاب من السكان استمرت طوال قرن : إن تاريخ الجزائر هو العمل على زيادة الأملاك العقارية الأوربية تدريجياً على حساب الأملاك الجزائرية .

وقد كانت جميع السبل سهلة ميسَّرة .

فنى أول الأمر كانوا ينتهزون أدنى إثارة من مقاومة لمصادرة الأراضى أو الحجز عليها .

وكان « بوجو » يقول « لايعنينا فى شيء أن تكون الأرض الطيبة لهذا الإنسان أو ذاك » وقد أدت لهم ثورة ١٨٧١ أجل الخدمات : فلقد سلبت مئات الألوف من الأفدنة من المغلوبين على أمرهم ولم يكتف الغاصبون بهذا بل أردنا نحن الفرنسيين أن نقدم للمسلمين هدية جميلة : أصدرنا لهم قانوننا المدنى . ولـكن مامرد هـذا الـكرم العظيم ؟ مرده أن الملـكية القبلية هى غالبا ملـكية جماعية ؛ فأرادوا تفتيتها ليتاح للتجار شراءها جزءاً جزءاً .

فنى عام ١٨٧٣ كلف رجال التحقيق بتحويل الملـكيات الـكبيرة إلى أخرى صغيرة توزع على أفراد القبيلة ؛ وكان هؤلاء المحققون يقومون بتوزيع الأنصبة على المستحقين . وكان بعضها خيالياً ؛ فقد اكتشف أحد

المحققين فى دوائر «حرار» أن ثمانية هكتارات يمتلكها خمسة وخمسون على المشاع ، فقام برشوة أحد هؤلاء الشركاء ليطالب بالتقسيم .

فما أن فعل حتى دخل التقسيم فى قيود من الاجراءات الفرنسية . المعقدة الطويلة انتهت بجميع الشركاء الى الإفلاس وبهذه الطريقة القائمة على الاحتيال استطاع تجار الأملاك الأوربيين شراء أراضيهم لقاء لقمة خبز .

حقيقة وجدنا فى مناطقنا فلاحين ممن أفقرهم تركيز الأراضى فى يد واحدة أو احتكار التصنيع فباعوا حقولهم والتحقوا بالعمل فى المدن . فإذا عمدنا فى بلادنا الى التوزيع العادل للأرض فلا يمكن أن نقول إن هذا العمل ينطوى على السرقة .

أما هنا فى الجزائر فقد فرض قانون أجنبى على المسلمين بدافع السلب والنهب . فمن المعروف أن هذا القانون لا يمكن أن يطبق عليهم ، وليس له من أثر إلا هدم البناء الداخلى للمجتمع الجزائرى .

وقد استمر هذا الإجراء فى القرن العشرين تحت ستار كونه قانونا اقتصادياً اقتضته ضرورة ملحة . وما كان الأمر ليصبح كذلك لو أن الدولة الفرنسية لم تخلق بصورة مصطنعة ظروف الحرية الرأسمالية فى بلد زراعى إقطاعى ، ومع ذلك فقد امتدح بعض الخطباء فى مجلسنا النيابى فرض قانوننا فرضا إجبارياً على الجزائر ، ووصف ذلك بأنه من مآثر المدنية الفرنسية .

وهاهى ذى نتائج عملية الاغتصاب :

فى عام ١٨٥٠ كانت أملاك المستعمرين ١١٥٫٠٠٠ هكتار . وفى عام ١٩٠٠ ارتفعت الى ١٫٦٠٠٫٠٠٠ وفى عام ١٩٥٠ زادت إلى ٢٫٧٠٣٫٠٠٠ هكتار .

وإذن فإن ۰۰۰ر۷۰۳ر۱ هكتار هي اليوم للملاك الأوروبيين ، وتملك الدولة الفرنسية ١١ مليون هكتار تحت اسم الأراضي الأميرية .

أما الجزائريون فقد ترك لهم سبعة ملايين هكتار فحسب أي أنه في خلال قرن واحد سلب منهم ثلث أرضهم . ولكن قانون التجمع قد أضر بعض الضرر بمصالح المستعمرين الصغار ، فهناك اليوم ستة آلاف مالك يزيد دخلهم من إنتاجهم الزراعي عن اثني عشر مليون فرنك وبعضهم يبلغ المليار . وعلى ذلك فالنظام الاستعماري قد حقق أهدافه .

فالدولة الفرنسية تقطع الأرض العربية للمستعمرين لتكون لهم قدرة شرائية تمكنهم من الإقبال على زيادة شراء المصنوعات الفرنسية على حين يبيع المستعمرون للأسواق الفرنسية محصولات الأرض المسلوبة ، وبهذا عزز النظام الاستعماري ، واكتملت حلقاته ، وعلينا أن نتابعه في كل مراحله حتى نرى قسوته وجبروته في وضوح.

١ــ الغرض من «فرنسة» الملكية الزراعية وتجزئتها هو تحطيم المجتمع القبلي القديم من غير أن يحل محله بديل آخر .

وقد شجع هذا التحطيم لأنه أولا كان يقتل قوى المقاومة ويستبدل بالقوى الجماعية وهن الأفراد ، ولأنه بعد ذلك كان يعمل على إيجاد يد عاملة « على الأقل مادامت الحراثة لم تصنع » .

وهذه اليد العاملة وحدها تقوم بالتعويض عن ازدياد نفقات النقل والمحافظة على أرباح المؤسسات الاستعمارية تجاه اقتصاديات فرنسا حين تنخفض تكاليف انتاجها .

وهكذا حول الاستعمار الشعب الجزائري إلى يد عاملة زراعية ضخمة

حتى قال بعضهم عن جزائريى اليوم أنهم يشبهون جزائريى ١٨٣٠ ، فهم يفلحون الأرض نفسها ، ولئن يكن هناك فارق بينهما فهو أن الجزائريين اليوم أجراء فيها وليسوا ملاكا لها .

٢ـ لو لم تكن السرقة من النوع الاستعمارى المتعمد لكان فى الإمكان على الأقل أن يتيح الإنتاج الزراعى المصنع أن للجزائريين شراء نتاج أرضهم بأنسب الأسعار ، ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا عملاء للمستعمرين .

لأن على المستعمر أن يقوم بالتصدير ليستطيع دفع ثمن مايستورده : إنه ينتج للسوق الفرنسية . وعلى هذا ـ يدفعه منطق النظام الاستعمارى الى أن يضحى بمطالب الجزائريين من أجل إتراف الفرنسيين .

لقدزادت الأرض المنزرعة كرمابين ١٩٢٧، ١٩٣٢ بمقدار ١٧٣,٠٠٠ هكتار أخذ أكثر من نصفها من المسلمين ـ ومعروف أن المسلمين لايتعاطون الخمور ، وإنما كانوا يزرعون هذه الأراضى المبتزة منهم حبوبا للسوق الجزائرية . وإذن فليست الأرض هى التى تنتزع منهم الآن فحسب ، وإنما يحرم الشعب الجزائرى من غذائه الرئيسى حين تزرع أرضه بالكروم ، وهكذا يحول نصف مليون هكتار ، مقتطعة من أجود الأراضى ومخصصة كلها لزراعة العنب إلى أرض لاتغل شيئا للجمهرة الشعبية الجزائرية .

وماذا نقول عن الحضيات والموالح الموضوعة فى جميع محال بقالة المسلمين أتعتقدون أن الفلاحين يأكلون برتقالا بعد فراغهم من طعامهم ؟

مما تقدم ، نجد أن إنتاج الحبوب يزحف عاماً بعد عام نحو الجنوب الصحراوى .

وليس من شك فى أنه سيوجد من يبررون هذا الوضع فيقولون إن هذه مكرمة من مكارم فرنسا وأفضالها ! !

ومعنى هذا أن التعمير واستصلاح الأراضي يزداد شيئاً فشيئاً ، وأن الري قد استحدث في البقاع المجدبة الصحراوية .

وهذه الأكاذيب قد تنطلي على المواطنين السذج القاطنين في فرنسا أما الفلاح الجزائري فيعلم علم اليقين أن الجنوب الصحراوي لا يزال محروماً من الري ، وأنه أرغم على أن يعيش فيه لأن فرنسا صاحبة اليد العليا البيضاء قد طردته من الشمال ، وسلبته أرضه الصالحة في المروج الخضر حول المدن .

وكانت نتيجة هذا الوضع السيء . أن زراعة الحبوب ظلت على ما هي عليه منذ سبعين عاماً مع أن سكان الجزائر قد بلغو ثلاثة أضعاف ما كانوا عليه من قبل ، ولئن قيل إن ازدياد عدد السكان هو إحدى حسنات فرنسا فنذكر أن أشد الشعوب بؤساً هي أكثرها ذرية . فهل ترانا سنطلب من الجزائريين أن يقدموا لبلادنا الشكر لأنها أتاحت لأبنائهم أن يولدوا في جحيم العوز والفاقة ، ويعيشوا عبيداً ، ويقضون نحبهم جياعا ؟ أما الذين يشكون في هذه الحقيقة الدامغة ، فإليهم الأرقام من واقع الاحصاءات الرسمية :

في عام ١٨٧١ : كان نصيب كل فرد خمسة قناطير من الحبوب .

وفي عام ١٩٠١ : أربعة قناطير .

وفي عام ١٩٤٠ : قنطارين ونصف .

وفي عام ١٩٤٥ : قنطارين .

وفي نفس الوقت ، كان من جراء تضييق الملكيات الفردية إلغاء طرق المسير وحقوق المرور .

وفى الجنوب الصحراوى حيث جمعوا فيه القائمين على تربية الماشية من المسلمين فقد ظلت مواشيهم على حالها من الهزال والقلة .

أما فى الشمال فلا أثر لها ، وقد كان فى الجزائر قبل عام ١٩١٤ تسعة ملايين رأس من الماشية . أما فى عام ١٩٥٠، فلم يكن لديها أكثر من أربعة ملايين .

أما الإنتاج الزراعى اليوم فهو كما يلى بالأرقام :

يغل المسلمون ما قيمة ٤٧ مليارا من الفرنكات .

والأوروبيون ما قيمته ٩١ مليارا .

أى أن تسعة ملايين نسمة تقدم ثلث الإنتاج الزراعى ، وهذا الثلث هو المحدد لهم للاستهلاك ، أما بقية المحصول فيصدر الى فرنسا . واذن فعليهم بآلاتهم البدائية وأراضيهم المجدبة،واجب تغذية أنفسهم والا هلكوا ويجب أن يستخلص من حصة المسلمين — بعد أن حدد استهلاك الحبوب بمعدل قنطارين للشخص — تسعة وعشرون مليار فرنك للاستهلاك الذاتى وهذا يعنى فى ميزانيات الأسر عجز معظم العائلات عن الوفاء بحاجاتها ومطالبها فالغذاء يستنفد كل أموالهم فلا يبقى منها شىء للانفاق على الكساء والسكن وشراء الحبوب والآلات .

والسبب الوحيد فى هذا الفقر أن سياسة الاستعمار الزراعية البراقة قد أضحت بمقارنة قرحة فى جسم البلاد ، وأنها تمتص كل شىء وتأتى عليه .

٣ — يؤدى تجميع الأراضى فى أيد واحدة الى تصنيع الزراعة ولا شك فى أن فرنسا سعيدة ببيع جراراتها الى المستعمرين وبينما قلت قدرة

المسلم الإنتاجية لتوطينه فى أرض ضعيفة بنسبة الخمس ازدادت القدرة الشرائية لدى المستعمرين لمصلحتهم وحدهم .

فالأراضى التى تنتج العنب وتتراوح مساحتها بين هكتار وثلاثة ويستحيل فيها استخدام الأساليب الحديثة تعطى ٤٤ هكتوليترا ، فى كل هكتار . أما أراضى العنب التى تزيد مساحتها على ٦٠٠ هكتار فإنها تعطى ٦٠ هكتوليترا فى الهكتار وواضح أن ميكنة الآلات الزراعية يؤدى الى البطالة وذلك بفعل الآلة التى تحل محل العمال الزراعيين .

ولو كانت الجزائر تملك صناعة لكان ذلك ذا أهمية كبرى ، ولكن النظام الاستعمارى يسلبها هذا الحق .

فإذا العاطلون يتدفقون نحو المدن حيث يعملون يوماً أو بعض يوم فى أعمال التنظيم والنظافة ثم لا يجدون ما يعملون بعد ذلك ؟ وعاماً بعد آخر تتزايد أعدادهم ويمثلون طبقة الأجراء المستضعفة .

ففى عام ١٩٥٣ لم يكن هناك إلا ١٤٣٫٠٠٠ أجير مسجلين فى القوائم الرسمية على أنهم عملوا أكثر من تسعين يوما فى العام، أى بمعدل يوم لكل أربعة أيام .

وهذه نتائج الاستعمار البشعة التى لا مفر منها . فهم يبدأون باحتلال البلاد ، ثم سلب الأرض من ملاكها واستغلالهم بأزهد الأجور التى لا تمسك الرمق على أن هذه اليد العاملة الرخيصة تصبح مع التصنيع ، أغلى مما ينبغى! وهكذا ينتهى الأمر بانتزاع حق العمل من السكان الأصليين وهو حقهم الطبيعى ولا يجد الجزائرى ، وهو فى بيته ويقيم فى أرضه، وفى وطنه الخصب الممرع الا أن يسقط تحت وطأة الجوع .

أما الذين يجرؤون منا بالشكوى من أن الجزائريين يهاجرون إلى فرنسا ليغتصبوا أماكن العمال الفرنسيين ، فهل تراهم يعرفون أن ثمانين فى المائة منهم يرسلون نصف رواتبهم إلى عائلاتهم ؟ وإن مليوناً ونصف المليون من السكان الذين مايزالون يعيشون بين الخيام والأكواخ لا يقيم أودهم إلا من المال الذى يرسله لهم هؤلاء الـ ٤٠٠،٠٠٠ جزائرى الذين اختاروا المنفى مقراً لهم تحت وطأة الحاجة الملحة ؟ وهذا أيضاً نتيجة محتومة من نتائج النظام الاستعمارى البغيض : فالجزائريون مرغمون على التماس الخدمات فى فرنسا وقد حرموا منها فى الجزائر .

إن الاستثمار الاستعمارى دقيق غاية الدقة بالنسبة لـ ٩٠٪ من الجزائريين : أنهم مطرودون من أرضهم . مكدسون فى أراض غير صالحة مجبرون على أن يعملوا بأجور زهيدة تقرب من السخرة وتثير الاشمئزاز والسخرية . وقد فعل ذلك ليثبط عزائمهم فلا يثوروا خوفاً من التشرد وهكذا يصبح المستعمر سيداً متربعاً على عرشه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، يعز القلة ويذل الكثرة : فليس هناك ما يحمى العامل من غائلة العجز والمرض والشيخوخة ؟ فلا تأمينات اجتماعية أو صحية ولا مستودعات للطعام ، ولا مساكن للعمال . وإنما هناك مساكن متهالكة وقليل من الخبز والتين ، وعشر ساعات من العمل كل يوم : إن الأجر هنا هو أجر الكفاف لاستعادة القوى من أجل استئناف العمل .

هذه هى الصورة الحية فهل يمكن أن نجد على الأقل تعويضاً عن هذا البؤس المنظم الذى خلقه المغتصبون الأوروبيون ، فيما يطلق عليه « الخدمات العامة » ، من قبيل الأشغال العامة والصحة والتعليم ؟ لو كان لنا هذا العزاء ، لكان فى مقدورنا أن نحتفظ ببعض الأمل ، فلعل بعض

الإصلاح الذى يفعل بحكمة يخفف من هذا البؤس . ولكن لا . فالنظام الاستعمارى لا يعرف الرحمة .

فما دامت فرنسا ، منذ اليوم الأول قد انتزعت من الجزائريين أملاكهم وأبعدتهم عنها وما دامت قد عاملتهم على أنهم كم مهمل لا يمثلون حتى أنفسهم فإن العمل الفرنسى كله فى الجزائر ما وجد إلا لخير المستعمرين ومصالحهم الذاتية .

ولن أتكلم عن المطارات والموانى فهى لا تجدى الفلاح نفعاً إلا أنها تيسر له السفر إلى أحياء باريس الفقيرة ليقضى نحبه تحت وطأة الجوع والصقيع أمام الطرقات . فما شأنها ؟ إنها تصل المدن الكبيرة بأملاك الأوروبيين وبمناطق الاحتلال العسكرية .

وهى لم تنشأ لتتيح للجزائريين الوصول إلى منازلهم ومن الأدلة على ذلك أن زلزالا عنيفاً قد اكتسح مدينة « أورليانز » ومنطقة « شليف » السفلى فى ليلة ٨ — ٩ سبتمبر ١٩٥٤ .

وقد أعلنت الصحف نبأ وفاة ٣٩ أوروبيا و ١٣٧٠ مسلما . وقد كان بين هؤلاء الضحايا ٤٠٠ شخص لم يعثر عليهم إلا بعد مرور ثلاثة أيام بعد الزلزال . ولم تصل النجدات الأولى إلى بعض الدور إلا بعد ستة أيام .

وفى التعليل الواهى الذى تقدمه فرق الإنقاذ حكم صارم على العمل الفرنسى : « ماذا تريدون ؟ لقد كان هؤلاء المسلمون بعيدين كل البعد عن الطرق العامة » وماذا عن الصحة العامة ؟

لقد أرادت الإدارة الفرنسية أن تقوم بتحقيق ، بعد زلزال أورليانز عن حالة الدور . فتبين عن طريق المصادفة البحتة أن الذين اختارتهم كانوا

على بعد ثلاثين كيلو متراً أو أربعين من المدينة وأن ، الطبيب المكلف بالاسعاف الطبى لم يكن يزورهم إلا مرتين فى العام .

أما ثقافتنا العظيمة ، فمن يدرى إذا كان الجزائريون يرغبون حقاً فى اكتسابها ؟ على أن من المؤكد ، حلنا بينهم وبينها . ولن أذهب إلى أننا كنا فى مثل وقاحة تلك الولاية من ولايات جنوبى الولايات المتحدة التى شرعت قانوناً ظل سارياً حتى مطلع القرن التاسع عشر ، نضع فيه « تحت طائلة العقاب » كل من يقدم على تعليم العبيد الزنوج القراءة والكتابة ولكننا على كل حال ، أردنا أن نجعل من « إخواننا المسلمين » شعباً من الأميين .

ويبلغ عدد الجزائريين الأميين اليوم ٨٠ فى المائة ، وقد يهون الأمر لو أننا لم نحرم عليهم الاستعمال لغتنا . ولكن الواقع أن من متطلبات النظام الاستعمارى محاولة سد طريق التاريخ على المستعمرين .

ولما كان من مقومات القومية فى أوربا وحدة اللغة ، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات فاللغة العربية تعتبر فى الجزائر لغة أجنبية منذ عام ١٨٣٠ ، لأنهم مازالوا يتحدثون بها إلى اليوم . ولكنها لم تعد لغة مكتوبة إلا بالقوة ، لا بالفعل . ليس هذا فحسب بل لأن الإدارة الفرنسية قد صادرت دين العرب لكى تعمل على تفتيتهم وانتزاعهم من جوهم العربى . وهى تختار رجال الدين الإسلامى من بين عملائها ، وقد احتضنت أحط أنواع الخرافات التى تؤدى إلى سيادة التفرقة .

ولاشك فى أن الفصل بين الكنيسة والدولة اتجاه جمهورى أصيل يصلح لفرنسا .

أما فى الجزائر فإن الجمهورية الفرنسية لا تستطيع أن تسمح لنفسها

بأن تكون جمهورية فى الجزائر . إنها تحرص على عدم نشر الثقافة وتحافظ على المعتقدات التى تخدم الإقطاع ، وذلك بإتاحة الفرصة ليظل الإقطاع حياً سائداً بإقامة مجتمع بشرى تسود فيه القوانين ذات النزعة الفردية الحرة التى تقوض كل نهوض فى المجتمع الجزائرى ولكنها تبقى على الملوك الصغار الذين لا يستمدون سلطتهم إلا منها ، والذين لا يحكمون إلا من أجلها لها بكلمة واحدة تصطنع « ناساً من أهل البلاد » تفصلهم عن الجمهرة الشعبية ذات العقلية المحافظة ، وذلك بأن تجعلهم فى نطاق فردى حر يفصلهم عن عقلية المجتمع القديمة . إنها توجد جوعاً ولكنها تحول بينهم وبين الوعى المستنير حيث تقوم بتضليلهم وخداعهم بما ترسمه لهم من مساخر هزلية .

وهنا نرى نا مضطرين اضطراراً إلى الرجوع إلى محدثنا السالف الذكر — هذا المحدث الواقعى الطيب القلب ؛ الذى اقترح علينا القيام باصلاح عريض حين نادى بشعار « الاقتصاد أولا » وإنى أجيبه على الفور : بأن نعم ؛ إن الفلاح يموت من المسغبة ، بل إنه بحاجة إلى الكثير ؛ بحاجة الى الأرض والعمل والعلم ، فالأوبئة تنوشه وحالة الجزائر الراهنة صورة مؤلمة تطفح بألوان البؤس الناشىء فى المشرق الأقصى . ومع ذلك فمن المستحيل القيام بالتغيرات الاقتصادية الأساسية لأن بؤس الجزائريين وضنكهم هما النتيجة المباشرة التى يتطلبها الاستعمار ، والتى يستحيل إزالتها مع قيام الاستعمار .

وهذا ما يعلمه « جميع » الجزائريين الواعين ، فكلهم يؤمنون بقول ذلك المسلم « خطوة إلى الأمام ، وخطوتان إلى الخلف » تلك هى خطة الإصلاح الاستعمارى » الخطة التى تقضى على كل محاولة جدية للتنظيم السليم الخطة التى لا يمكن أن تبقى إلا إذا ازدادت كل يوم قسوة ومجافاة للإنسانية

ولنفرض ان فرنسا تقترح علاجا لهـذا الوضع ؟ إن أمامها ثلاثة حلول أو فروض .

١ — فهى إما أن تحقق من تلقاء نفسها الإصلاحات التى ينشدها المستعمر وتكون له وحده وقد مضت فى هـذا الحل فأتمت بناء سدود كثيرة وأقامت جهازاً كاملا للرى لزيادة المحصول الزراعى . ولـكن الحقيقة التى لا يمارى فيها هى أن الماء لا يروى إلا أراضى الوديان والسهول الأراضى التى كانت دائماً تعد من أجود أراضى الجزائر وقد اغتصبها الأوربيون ، ويعترف « مارتان » صراحة بأن ثلاثة أرباع الأراضى المروية انتهبها المستعمرون .

وإذا كنتم جادين أيهـا المستعمرون فاذهبوا إلى الجنوب الصحراوى وتعهدوه بالسقيا والرى !

٢ — وإما أن يشوه الإصلاح بحيث يصبح مبتوراً أو غير ذى فاعلية والحق أن نظام الجزائر هو فى حد ذاته نظام شائه ممسوخ .

فهل كانت الحكومة الفرنسية تنوى خداع المسلمين بانتخاب ذلك المجلس من قبل طائفتين من الناخبين ؟ إن النظام هناك لم يتح حتى للخداع أن يمضى إلى نهاية الشوط .

فالمستعمرون لم يتركوا للجزائريين نصيبهم من هذا الخداع ، فقد كان بالنسبة إليهم كثيراً عليهم : لقد وجدوا أن من الأيسر تزوير الانتخابات جهاراً ، مع اعتقادهم أنهم فى جانب الحق تماما : فخير لمن أراد أن يقتل الناس أن يطعنهم بالحراب . إنها جذور الاستعمار التى تتغلغل فى نفوسهم وتستبد بهم ، وما الاستعمار الجديد إلا الاستعمار القديم المقنع .

٣ ـ ولما أن ينحى الإصلاح الزراعى جانبا وتمعن الإدارة الفرنسية في إجرامها .

كان قانون « مارتان » ينص على أن يتنازل المستعمرون عن بعض مساحات من الأرض للدولة ، مقابل زيادة المحصول التى تنشأ عن إرواء أراضيهم ، وقد باعت الدولة هذه المساحات إلى جزائريين أعطوا مهلة تسديد ديونهم فى خمسة وعشرين عاما . وأنتم ترون أن هذا الإصلاح كان متواضعا فالقضية بكل بساطة هى أن يشترى بعض السكان الأصليين المختارين قطعة صغيرة من الأرض التى سلبت من آبائهم .

ولم يكن المستعمرون ليخسروا مليما واحداً فى هذه العملية ولكن ليست القضية فى نظرهم ألا يخسروا شيئا . وانما القضية هى أن يربحوا دائما بل يحصلوا على مزيد من الربح . فلقد عودتهم فرنسا منذ مائة سنة على « التضحيات » التى كانت تقوم بها من أجلهم فلم يكن بوسعهم الموافقة على إفادة السكان الأصليين من هذه التضحيات وكان أن أهمل قانون « مرتان »

وللوقوف على الخطة الاستعمارية تلقى نظرة على الطريقة التى أعدوها فى الدوائر الزراعية لتلقين الفلاح المسلم ميكنة الزراعة أو أصول الزراعة الحديثة لقد عمدوا إلى إنشاء مؤسسة وهمية لهذا الغرض لم تكن الغاية منها إلا رفع طاقة الفلاح الإنتاجية رفعاً بسيطاً لا يزيد محصوله زيادة ضئيلة حتى لا يموت جوعا .

ولكن مستعمرى فرنسا الجدد لم يدركوا فى بادىء الأمر أن هذه المؤسسة كانت إلبا على النظام .

فقد كان ينبغى أن يبقى إنتاج الفلاح قليلا حتى يباع بأسعار مرتفعة وحتى تظل الأيدى العاملة متوفرة .

. إن العمال الزراعيين يصبحون نادرين إذا انتشر التعليم الفنى ، ويصبحون أكثر مطالب ، بل إن الملاك المسلمين يشكلون منافسة خطيرة .

ثم إن التعليم أيا كان ، ومن حيث أتى يصبح وسيلة للتحرر .

وإذا كانت الحكومة عينية فإنها تدرك ذلك جيداً ، حتى أنها ترفض تعليم فلاحينا فى فرنسا بالذات ، فأولى بها ألا تنشر المعرفة الفنية بين سكان الجزائر .

وهكذا ظلت هذه الدوائر الفنية غير ذات عمل بعد أن هوجمت خفية فى الجزائر وبعنف فى مراكش .

وهكذا تظل جميع الإصلاحات عديمة الجدوى . وهى بصورة خاصة تكلف غالياً .

ولا يملك مستعمرو الجزائر وسائل تمويلها ، بسبب تكاليفها الباهظة بالنسبة لفرنسا . فإن نشر التعليم العام ـــ وهو إصلاح غالبا ما اقترح ـــ يكلف ٥٠٠ مليار فرنك « إذا حسبنا تكاليف كل تلميذ ٣٢٫٠٠٠ فرنك فى العام بينما لاتتجاوز ميزانية الجزائر كلها ٣٠٠ مليار ، والحق أن إصلاح التعليم لا يمكن أن يتحقق إلا فى جزائر مصنعة تبلغ ميزانيتها ثلاثة أضعاف ما هى عليه الآن .

ولكننا رأينا أن النظام الاستعمارى يعارض التصنيع ، مع أن فرنسا تستطيع أن تلتهم الملايين فى القيام بأعمال كبيرة .

وحين نتحدث عن النظام الاستعمارى . فيجب أن نتناقش ، فليست القضية قضية آلية مجردة فإن النظام قائم ، وهو يعمل ، فدائرة الاستعمار الجهنمية واقع ملموس .. وهذا الواقع يتمثل فى مليون من المستعمرين

وأبنائهم وأحفادهم ، شبوا فى كنف الاستعمار فأصبحوا يحكمون ويعملون وفق مبادىء النظام الاستعمارى .

ذلك أن المستعمر مصنوع كالمواطن الأصلى : إنه مرتبط بوظيفته ومصالحه مرتبط مع الحكومة الاستعمارية بالميثاق الاستعمارى ، فهو يتاجر لصالحه بالربا الفاحش ، فيثرى من بيع محصول البلد المستعمر . بل هو قد خلق زراعات جديدة تعكس حاجات فرنسا أكثر مما تعكس حاجات السكان الأصليين . فهو إذن يعمل فى ازدواج . إن له «وطنه» فرنسا «وبلده» الجزائر وهو فى الجزائر يمثل فرنسا ولا يريد أن تكون له علاقات بسواها.

ولكن مصالحه «الاقتصادية» تدفعه إلى معارضة الهيئات «السياسية» فى وطنه فهذه الهيئات الفرنسية ذات أنظمة ديمقراطية بورجوازية قائمة على الرأسمالية الحرة . وهى تتضمن حق الانتخاب وحق الاجتماع وحرية الصحافة.

ولكن المستعمر الذى تتعارض مصالحه مباشرة مع مصالح الجزائريين ، والذى لا يستطع أن يعيش إلا على الاستغلال والاحتكار لا يستطيع أن أن يقر هذه الحقوق إلا لنفسه ويتمتع بها فى فرنسا وسط الفرنسيين . وهو من هذه الناحية يبغض كل البغض أن تمتد النزعات الفرنسية إلى خارج فرنسا إذن فى هذه الحالة يمكن أن يطالب بها الشعب الجزائرى ؟ ويؤيد كل التأييد النزعات العنصرية التى لا تذهب مذهب شمول الحرية البورجوازية من أن جميع الناس يتمتعون بحقوق واحدة ، بل إنه يصنع من الجزائرى رجلا أدنى مستوى من سائر البشر ، واستنكاره لما تؤمن به الهيئات السياسية فى وطنه حين يريد مواطنوه أن يبسطوا نزعاتها «على بلده» يورث عنده نزعة انفصالية . أليس هو زعيم المستوطنين الجزائريين الذى قال منذ بضعة أشهر : « إذا كانت فرنسا حائرة ، فنحن نحل محلها » .

ولكن التناقض يبلغ مداه حين يذكر المستعمر أن المستوطنين الفرنسيين معزولون وسط المسلمين ، وأن نسبتهم هي تسعة إلى واحد . والحق أنهم إنما يرفضون كل نظام يمنح السلطة للأكثرية ، لأنهم فرضوا على أنفسهم العزلة ؛ فما من وسيلة أمامهم للبقاء إلا القوة .

ولكن هذا السبب — أي عزلتهم — ولأنهم يشعرون بضآلة عددهم نراهم دائماً في حاجة إلى حماية الوطن الأم ، أي قوة الجيش الفرنسي . بحيث أن هؤلاء المستوطنين المنعزلين يحيون حياتين ، ويؤمنون بدينين ، فبينما هم يؤمنون بالجمهورية في فرنسا — إلى الحد الذي تسمح لهم هيئاتنا أن يقيموا لهم « سلطة سياسية » عندنا — إذا هم في الجزائر فاشيون متطرفون يبغضون ديمقراطية الجمهورية ويؤثرون الجيش الجمهوري بالحب العنيف .

وهل في مكنتهم أن يتحللوا من ذلك؟ لن يستطيعوا ماداموا مستعمرين لقد حدثنا التاريخ أن بعض الغزاة الذين أقاموا في بلد ما واستوطنوه ، وامتزجوا بأهل البلاد وانتهى بهم الأمر إلى خلق أمة جديدة،لها مصالح قومية مشتركة ، بالنسبة لبعض الطبقات على الأقل .

ولكن الاستعمار قد وقف سداً منيعاً وأقام حائطاً سميكا فولاذيا بين المستوطنين وأهل البلاد الأصليين .

فنحن نحتل الجزائر منذ أكثر من قرن ، ولم يكد يقع طوال هذه المدة أي زواج مختلط أو تتحقق أية مودة فرنسية إسلامية اعتقاداً منه أن مصلحة المستعمرين هي محو الشخصية الجزائرية من أجل فرنسا . فلو كانوا مؤمنين بالجزائر وتقدمها والإبقاء عليها لعملوا — تحدوهم مصالحهم الخاصة — على الاهتمام بالتنمية الاقتصادية والثقافة في الجزائر .

وفي فترة الاحتلال ترى الوطن الأم واقعاً في أحابيل الاستعمار ما دام

يفرض سلطانه على الجزائر مع أن الاستعمار يلطخ سمعته ويحط من شأنه ثم إن الاستعمار يجبر الوطن الأم على إيفاد فرنسيين روحهم ديمقراطية إلى الجزائر وقد يلقون حتفهم لا دفاعاً عن الحرية ولـكن دفاعاً عن الاستبداد والظلم الذي يصطنعه مستعمرون فاشيون ، ولـكن الحلقة تضيق هنا أيضاً فالظلم والطغيان الذي تمارسه لمصلحتهم يعرضهم كل يوم إلى مزيد من الإحن والأحقاد . ففرقنا العسكرية ، قدر ما تحميهم ـ تضاعف من الأخطار المحدقة بها ، مما يجعل وجود الجيش أمراً لا محيص عنه وسوف تـكلفنا الحرب هذا العام ، إذا نحن واصلناها أكثر من ٣٠٠ مليار فرنك وهذا ما يوازى مجموع الموارد الجزائرية .

وها نحن أولاء نصل إلى النقطة التي يهدم عندها النظام نفسه بنفسه : إن المستعمرات تبهظنا بنفقاتها أكثر مما تدر علينا .

لقد كان المستعمرون متفقين مع أنفسهم ومخلصين لنظامهم حين قوضوا دعائم المجتمع الإسلامي ، ومنعوا حق التمثيل عن المسلمين ، فالتمثيل كان معناه ضمان جميع الحقوق الأساسية للجزائريين ، وأن يفيدوا من مؤسسات المعونة والأمن وأن تكون لهم في مجلسنا النيابي مائة نائب جزائري. وأن يهيأ السبيل للمسلمين ليعيشوا في مستوى من الحياة يعادل مستوى الفرنسيين وذلك بإجراء إصلاح زراعي حقيقي وتصنيع البلاد . . وتمثيل الجزائريين معناه إذا تحقق نهاية الاستعمار : فـكيف يسوغ الاستعمار هدم نفسه بنفسه ؟ ولـكن ما دام المستعمر لا يهمه إلا مصلحته وسعادته ولو على أشلاء المستعمرين وبؤسهم فلا بد أن يكون لهذا الموقف السلبي رد فعل يتمثل في وعي الجماهير .

لقد اكتشفت الشخصية الجزائرية نفسها كرد فعل للتجزئة والنضال في سبيل الحياة ، وليست القومية الجزائرية مجرد إحياء للتقاليد والمواضعات

والصلات ، وإنما هى المخرج الوحيد الذى يملكه الجزائريون لوضع حد لاستثمارهم واستغلالهم .

لقد رأينا جول فيرى يصرح فى المجلس « حيث السيادة السياسية تكون السيادة الاقتصادية . . . »

ونحن نرى أن الجزائريين يترنحون ويتساقطون من جراء سيادتنا الاقتصادية ، ولكنهم يأخذون عبرة من هذه التجربة التى تمر بهم ، فلقد قرروا من أجل عدم سيادتنا الاقتصادية ، أن يهاجموا سيطرتنا السياسية وهكذا خلق المستعمرون لهم أعداء متربصين ، فأظهروا للمترددين الشاكين أنه ليس هناك من حل أمامهم إلا طريق القوة .

لن الحسنة الوحيدة التى يمكن أن تذكر للاستعمار هى أن يظهر بمظهر الصلابة والتشبث من أجل بقائه واستمراره وفى هذه السياسة المتشددة يضع نهايته ويقيم لحده .

أما الدرس الوحيد الذى تعلمناه من هذه الأحداث — نحن فرنسيى الوطن الأم — فهو أن الاستعمار يعمل الآن على هدم كيانه ، ولكنه مازال سادراً فى تعكير الجو . إنه عارنا ، وهو يتنكر لمبادئنا ويظهرنا بمظهر ساخر أمام العالم . انه ينشر بيننا وباء العنصرية ، كما أثبتت ذلك حوادث «مونبليه» أخيراً وهو يفرض على شبابنا بذل حياتهم رغما عنهم من أجل مبادىء نازية نحاربها منذ عشر سنوات ، وهو يحاول أن يبرر أعماله الوحشية بخلق الفاشية فى داخل بلادنا ، فرنسا ذاتها ، وأن مهمتنا هى أن نساعده على أن يلفظ أنفاسه الأخيرة لا فى الجزائر وحدها ، بل حيثما وجد وأنى كان ، ولا شك أن الذين ينادون بالتخلى عن الجزائر هم أناس بلهاء ، فليس لنا أن نتخلى عما لم نملكه قط . بل الأمر على العكس هى أن نقيم مع الجزائريين علاقات

جديدة . . علاقات بين فرنسا الحرة والجزائر الحرة . . ولكن فلنحذر هذا الخداع المغلف بالإصلاح فقد ينأى بنا عن السبيل الذى رسمناه .

ان الاستعمارى الجديدى هو انسان يخبط فى متاهات الضلال ما دام يعتقد أنه فى الامكان تحسين النظام الاستعمارى أو هو انسان يتسم باللؤم والمكر ، فهو يقترح الإصلاحات لأنه على يقين من أنه لامتع من ورائها .

ان الإصلاح سيتحقق من غير شك ولكن الشعب الجزائرى هو الذى سيحققه .

ان الشيء الوحيد الذى يجب أن نقدمه للجزائريين اليوم هوأن نؤازرهم فى جهادهم لتحريرهم وتحرير الفرنسيين من وصمة الاستعمار البغيض .

شهود من المجندين .

لقد نشرت فى الفترة الأخيرة بيانات ووثائق عن وسائل السلام التى تتبعها فرنسا فى الجزائر .وذلك فى كتاب عنوانه « شهود من المجندين » Des Rappels temoignent فهل اطلعتم عليه ؟ ؟

إن هؤلاء العائدين من المسيحيين كهنة ورجال دين مجندون .

ومن المحتمل أن تختلف آراؤهم فى السياسة وتتباين رغم أنهم لم يذكروا لنا عنها شيئاً وإن تكن رغبتهم جميعاً الكشف عن هذا القرح — الذى فشا فى الجيش وإن لم يعمه كله ، والذى أصبح من المستحيل تحديد مكانه بالضبط — وعن ممارسة الدكتاتورية العنيدة وأساليب العدوان والاستغلال والقسوة ، فهناك تسلب الأموال وتنتهك أعراض النساء ، وينتقم من المدنيين بممارسة إبادة الجنس وقتل الجماعات دون أدنى محاكمة ، ويسامون أبشع أدوات التعذيب فى استجوابهم للإدلاء باعتراف أو تقديم معلومات .

والحق أن هؤلاء الشهود تحدثوا فى صراحة مذهلة ففضحوا جميع جرائم الحرب التى شهدوها بأعينهم ولمسوها بأنفسهم .

إن هذه الشهادات العادلة ، المنصفة التى يجيزها أشد الناس إجراما ، إنما تؤلف وثيقة رهيبة ، وأن قراءتها أمر عسير ، فطالبها يغالب نفسه

للإنتقال من سطر إلى سطر ومن فقرة إلى فقرة .

وبالرغم من ذلك العناء المعنى فانى أوصيكم بقراءة هذا الكتيب ، أوصى جميع الذين لم يقرأونه للآن بالقراءة ، كما أعنى أن يقرأه جميع الفرنسيين ، ذلك لأننا مرضى نعانى من داء وبيل .

إن فرنسا المحمومة ، المأخوذة بأحلام مجدها التليد من غير أن تستشعر الخجل ، تتخبط وسط ظلام دامس وتحت وطأة كابوس ثقيل لاتستطيع منه حراكا ، فاما أن نرى كل شيء أمامنا بوضوح تام وإما أن تنفجر بالسخط والغضب .

فمنذ ثمانية عشر عاما نرى أن بلادنا كانت فريسة لما أسماه القانون (عملية قتل المعنويات) والحق أن قتل معنويات أمة لايتأتى أولا بتحطيم معنوياتها وإنما يكون بانحطاط أخلاقها .

أما الوسيلة فلا يجهلها أحد، حين ألقوا بنا فى مغامرة حقيرة أوحو إلينا شعوراً بالذنب الاجتماعى .

ولكننا ندلى بأصواتنا وفى أيدينا السلطات ونستطيع بطريقة ما أن نسحبها . فان ثورة الرأى العام تستطيع أن تسقط الوزراء وينبغى أن نكون على علم بالجرائم التى ترتكب باسمنا حتى نستطيع إيقافها ، وهذا الشعور بالذنب الذى يرقد فى نفوسنا من غير أن يتحرك ينبغى أن نضعه فى حسابنا وأن نذل ونسفل لكى نستطيع احتماله .

على أننا لم ننحط إلى مثل هذا الدرك حتى نسمع صراخ طفل معذب

فلا نتألم ولا نشعر بهول المصاب (١) .

وقد يسهل علينا أن نهون من هذا الأمر لو أن هذه الصرخات تطرق أسماعنا بالفعل ، ولكنهم فى الواقع يسدون إلينا جميلا بكتمانها عنا .

ليست القحة هى التى تقتل معنوياتنا أو البغض والحقد وإنما هى كتمان الحقائق عنا حتى نعيش فى ظلام لا أول له ولا آخر ، وقد نسهم نحن أنفسنا فى الإبقاء عليه .

إن حكامنا بحرصهم الشديد على توفير الراحة لنا لايتورعون عن ألا يزودونا بالمعلومات والحقائق الصحيحة بتعمدهم إخفاءها أو تصفيتها .

فمثلا حين يقتل الثوار أسرة أوربية لاتنقل إلينا الصحف شيئاً من أخبار هذه المجزرة حتى ولا صور الجثث والأجساد الممزقة ، ولكن حين لا يجد محام مسلم أى ملجأ من جلاديه الفرنسيين غير الانتحار فإن الخبر يشار اليه باقتضاب وفى كلمات قلائل (حرصاً) على حساسيتنا .

فالنفاق والخداع والكذب واجب على ناقلى الأخبار فى فرنسا ، والجريمة الوحيدة هى تعكير صفونا .

ولقد أكدوا ذلك الواقع للسيد بايرجا Peyerga فلن نجد فى الجزائر من يمكنه إنكار الأحداث التى نقلها إلينا ، وما أخذوه عليه فحسب أنه رواها لنا نحن الفرنسيين .

وهناك أيضاً جنود فرنسيون يذبحون فى شوارع مدن الجزائر تحت

---

(١) تراجع الصفحتان ١٠ و ٥٩٩ من كتاب (شهود من المجندين) .

أنظار السكان الأوربيين المتعطشين لإثارة الحرب . ولكن هــذا ليس من شأننا .

إن حقيقة إفريقية هى خمر قوى آسر لا تستطيع رؤوسنا المرهفة احتماله: فاذا يصيب المستوطنين اذا ترنحت البلاد الفرنسية ؟

إن الهدوء هو ما نحتاج اليه ، ونحتاج أيضاً الى فترة استجمام وبعض ألوان التسلية : فمنذ عهد لويس السادس عشر أصبح كل فرنسى يتيما ، وأن حكومة موليه تعرف حداد طبقتنا البرجوازية وتقاسمها إياه ، وهى على استعداد لتقديم أية تضحية ، فقد نصبت ملكة انجلترا على عرش فرنسا لمدة ثلاثة أيام فما ألذ ذلك وأجمله ! !

إن الناس يتحدثون فيما بينهم من غير أن يعرف بعضهم بعضاً ، وهم يتماسكون بالأيدى ويرقصون . وبالرغم من ذلك فإن فى الجزائر أبطالا مكافحين يواصلون جهادهم ، فليس عند الجلادين أيام عطلة أو أعياد فإن الإذاعة تحمل اليهم آيات جنودنا فيقولون لأنفسهم : « أما وقد حصلوا الآن على غايتهم فليتركونا وشأننا » .

وقد توجهت الملكة فى أثناء استراحتها الى قصر وندسور فإذا فرنسا وهى فى ســورة الحب والمرح تسقط إعياء وتلازم الفراش ، فما كان من الحكومة الفرنسية الا أن أشارت إلينا من طرف خفى وهى تمشى على حذر هامسة : « لا تقلقوا نومها » !

وبالرغم من هذا فإذا أتيح لواحد منا أن يستيقظ من سباته ، وأن يسأل ممرضيه فسرعان ماتعمد الحكومة الى حيلة أخرى ، وبأسرع مايمكن تؤلف لجنة تنحصر مهمتها فى التخفيف من مسئولياتنا وأن تقول لنا :

« هل تجاوزنا الحد ؟ وهل حدث منا سوء تصرف ؟ »

ربما ، ولكنها مرة أو مرتين ، ولابد أن تقع أخطاء فى الحروب .
ثم خبرونا : ما الذى يشغلكم ويقلق بالكم ؟ إنكم تعيشون بعيداً عن الجزائر ، ولا تعرفون القضية على حقيقتها ، فأولوا ثقتكم إذن هذه اللجنة التى ستكونها من أشخاص متصفين بالطيبة متخصصين فى حالات الوساوس وقلق الضمير ، فابلغوها ما يساوركم من قلق ، وسوف تنقله هى الى الجزائر ، أما أنتم فناموا قريرى العين مرتاحى الضمير » .

ولكن ليتنا نستطيع النوم ، أو نستطيع تجاهل كل شيء ! !

ليتنا منعزلون عن الجزائر بجزر من الصمت ! ! وليتهم يستطيعون خداعنا ! !

إن الأجنبي قد يستطيع حينئذ أن يشك فى ذكائنا ، ولكنه لن يشك فى سلامة ضمائرنا .

والواقع أننا لسنا سليمى الضمائر . إننا قذرون. إن ضمائرنا لم تعكر وهى مع ذلك مبلبلة . وحكامنا يعرفون ذلك حق المعرفة . وهم يريدوننا على هذا النحو . إن كل الذى يريدون أن يتاح لهم بهذه الرعاية والعناية والتحفظ هو اشتراكنا فى الجريمة تحت ستار من الجهل الزائف ، فالناس جميعاً قد سمعوا بأساليب التعذيب ، وتسربت هذه الأنباء إلى الصحف الكبرى رغم كل شيء وكل رقابة . ونشرت صغرى الصحف التى تتسم بالشرف بعض شهادات مختلفة .

وتداولت الأيدى نشرات عديدة ، وعاد جنود يتحدثون عما شاهدوه ولكن هذا هو مايخدم الذين يعملون على إفساد المعنويات وزلزلة القيم : لأن كل شيء يتوه أو ينبت فى الكتل البشرية ، ويجب أن تمهد السبل للأنباء الواردة من هنا وهناك ثم تلتوى بها السبل الضيقة المتداخلة ويقضى

على الأنباء . أما الصحف والنشرات فلا تقرؤها غالبية الفرنسيين لأنهم لا يستطيعون قراءتها ، وإنما هم يعرفون أشخاصاً بأعينهم يقرءون لهم ، وكثيرون منا لم يحدث أبداً أن استمعوا إلى مجند وهو يتكلم، وإنما نقل إليهم ما كان يرويه بعض المجندين العائدين .

وهذه الشهادات البعيدة المتناقلة فى تواتر تكذب رسمياً ، ثم تتضاءل فى أثناء تداولها تدريجياً . وهنا ندخل فى دور التساؤل ويا للأسف ! لماذا نصدق كل هذه الروايات ؟ ؟ أين هى الأدلة ؟ أين هم الشهود ؟

أما الذين يقولون أنهم مقتنعون ؟ فلأنهم كانوا كذلك من قبل . صحيح أنه لا يمكن رفض جواز حدوثها ولكن علينا أن نتريث وأن ننتظر ، وعلينا ألا نصدر الحكم قبل أن نتأكد ، وإذن فنحن لا نحكم ولا نستعلم كذلك . فمجرد أن نحاول الحصول على أوراق الدعوى حتى يتحول مجتمعنا الواضح إلى غابة بكر : نسمع فيها دوى الطبل من مسافة بعيدة ، وبشكل غامض ، وإذا أزدنا الاقتراب من مصدر الدوى رأينا أنفسنا نسير فى حلقة مفرغة ثم نكتفى بأن نقول : يكفينا ما نتحمله من هموم شخصية ولا داعى لتحمل هموم الآخرين .

إن الذى قضى يومه فى الكد والعمل وقابل فى مكتبه كثيراً من مضايقات الحياة اليومية ، ليس ملزماً بأن يقضى السهرة فى جمع الأخبار عن العرب ومتاعبهم .

وهذه هى أول أكاذيبنا — ليس على الذين يفسدون المعنويات إلا أن يقفوا معا ويقولوا : إننا سننجز العمل بأنفسنا . والحق أن الهموم الذاتية لا تحول بين المرء وبين قراءة الصحيفة اليومية بعد العشاء ، والحكم على القضايا العامة يلهى عن القضايا الخاصة .

ولن ذرف الدموع أو الاستسلام لعسر هضم عنيف ينسى الغضب المكبوت فى النفس طيلة النهار . إن الصحف تخايلنا : فهى تريد أن تدخل فى روعنا . أننا طيبون... وهنا يكمن الكذب ، وتبريره يسير فإننا تنقصنا الأدلة ولذلك لانستطيع أن نصدق شيئاً . غير أننا لا نبحث عن هذه الأدلة لأننا نقسر على المعرفة . وما الذى كان يبغيه الذين يقومون على إفساد معنوياتنا ؟ إنهم يبغون ذلك ولا شيء سواه : جهلا قائما على التقزز ، ولايمكن التجاوز عنه ، إنه يدفعنا إلى طريق الهوان ويقربنا شيئاً فشيئاً من هؤلاء الذين كان يجب علينا أن نحكم عليهم ، حتى إذا اقتربنا منهم كل القرب لم تلبث أن نصبح : الناس إخوة ، « والناس سواسية » ثم نرتمى فى أحضانهم .

أما كذبتنا الثانية فقد أعدوها لنا . إن الفخ يتمثل فى اللجنة المشكلة وحبذا لو أمكننا أن نثق بها ، ولكن على فرض أننا نريد ذلك ، فن أين نستمد الخداع اللازم ، وما فائدة أية لجنة حين تزداد المذابح والجرائم فى جميع أنحاء الجزائر ؟ من الذى سينقل إليها وهى فى مدينة الجزائر ، ما يقترف فى الريف ؟ ومن الذى يبادلها الرأى ؟ وفى أى شيء ؟ أتراها ستذكر الناس بحقوق الإنسان ؟ إن الجميع يعرفونها بما فيهم السيد « لاكوست » إن القضية تتمثل فى الاعتراف بحقوق الإنسان : فكيف يراد لها أن تبلغ ذلك ؟ .

وإذا كان الوزير المقيم لا يستطيع أن يحد من الأعمال غير المشروعة فهل يظن أن تعيين بضعة مستشارين معه سيمكنه من القضاء على هذه

الأعمال ؟ وإذا كان هو نفسه يستطيع أن يقضى على الجرائم والمآثم ، فما حاجته إليهم ؟ الحقيقة هى أن الحكومة قامت بحركة ما ، فصرح السيد موليه بأنه « قلق مضطرب » وأنه يبغى التنور فى الموضوع كله . وإذا نحن صدقناه كان لنا فى ذلك عذرنا :

إن الكلمة الإنسانية موضوعة لكى تصدق . وإذا نحن لم تصدقه كان لنا عذرنا :

فكلمة السيد « موليه » موضوعة لتكون مثار شك وريبة . إننا نعرف أن لجنة التحقيق ستكون من رجال لا غبار عليهم ولا مطعن فيهم ونعرف أيضاً أنها لن تستطيع أن تؤدى أى شيء :

إن نزاهتهم تفيدنا فى أنها تقنع عجزهم ، ولذلك فنحن نرفض أن نمنح الحكومة ثقتنا وإن كنا نعتمد عليها لكى تبدد شكوكنا .

مجرمون . مجرمون مرتين . إننا نشعر بأننا فريسة ضيق واضطراب ، إن لم يكن هو الهول بعد فإنه النذير بأن الهول قريب منا وأنه يتهددنا لدرجة أننا لا نستطيع ولا نريد أن نلقاه وجها لوجه . وفجأة يلمع بريق يخطف الأبصار فنهتف : « هل كان هذا صحيحاً ؟ » .

وهكذا يجد كل منا جاره مريباً ويخشى أن يبدو هو مريباً أمام جاره . قد يختلف بعض الأصدقاء فى الرأى حول قضية الجزائر ولكن ذلك لا يحول دون احترام بعضهم لبعض . ولكن ما القول فى الإعدام بالجملة أو إبادة الجنس ؟ وما القول فى ألوان التعذيب المختلفة ؟ هل من الممكن الاحتفاظ بصداقة هؤلاء الذين يقرونها ؟ إن الجميع واجمون ينظر بعضهم إلى بعض وكل منهم يحدث نفسه متسائلا « ما الذى يعرف ؟ ما الذى

يظنه ؟ ما الذى اعتزم أن ينساه ؟ » إن الناس يخافون الحديث فيما بينهم إلا إذا كانت أفكارهم متشابهة متقاربة . فإذا حدث واكتشفت مجاملة خبيثة من إنسان شد على يدى فإن هذا الإنسان لا ينطق بشيء ؟ ومن لا يتفوه بشيء عد موافقاً « فالسكوت رضا » كما يقولون ، غير أنى أنا الآخر أمسك عن الكلام .

ولكن لنفرض أنه هو الذى كان يأخذ على ضعفى وتخاذلى ؟.

إن الحذر يفرض علينا عزلة جديدة : وهذه حالنا فنحن نعيش فى انفصال عن مواطنينا خشية أن نحط أو يحط من قدرنا .

والحقيقة أن هذا شيء واحد ، فنحن جميعاً متشابهون ونحن نتحرج من أن نسأل الآخرين لأن إجاباتهم ستكشف عن انحطاطنا وضعفنا فمثلا إذا همس أحدهم بهذا السؤال ليتحلل من قلقه ، ويلقى بأثقاله ويبرر جرائمنا :

والثوار ؟ ألم يرتكبوا الفظائع ؟

نفهم فجأة أن الرعب والظلام والصمت المطبق قد أهوت بنا مرة أخرى إلى عصور الثأر البربرية .

وأن نحكم على الفرنسيين بوصف واحد هو أنهم ذوو ضمائر فاسدة ربما نستثنى منهم السيد « موليه » !

وهذه الضمائر هى التى تنزع بنا إلى الإجرام لن تشتت فكرنا ، ولعبة « النهاية » التى نلعبها فى داخل أنفسنا . وهذه المصابيح التى تخفت ضوءها ، وهذا الملق المؤسف ، ينبغى ألا نجد فيها جميعاً طريق الخلاص بل نذير ترد عميق ، إننا نهوى إلى قاع البحر وقد تثور ثائرتنا عندما

نرى الآخرين يصدرون حكمهم القاسى علينا ، فيجرفنا غضبنا شيئاً فشيئاً إلى المشاركة فى الجريمة :

ليس من حق الولايات المتحدة الأمريكية أن تتكلم فإنها تعامل هى الأخرى الزنوج فيها معاملة شاذة : .

هذا صحيح فإنه لا يحق لأمريكا أن تتكلم ، ولا يحق كذلك للسويد التى ليست دولة مستعمرة ، لا يحق لأحد أن يتكلم .

أما نحن فيجب علينا أن نتكلم ، وهانحن أولاء لا نتكلم . إن لنا مراسلين شرفاء لا تنقصهم الشجاعة ، يدلون إلينا بما يعرفون كل يوم أو كل أسبوع فإذا نحن نسعى إلى هدمهم أو سجنهم .

وهكذا يقل الاستماع إليهم ولكن ما دهى الأصوات الشريفة المدوية التى أخذت ترنم ترنيمة الأرغن فى نوفمبر الماضى؟

لقد فاضت أنفسنا حسرات ، وصعدنا حر الأنفاس وزأرنا لوقف التدخل السوفيتى فى المجر(١) ، مادهى هذه الأصوات اليوم فلا تفضى إلينا بكل شىء عن أنفسنا ، عما نفعله فى الجزائر إنكم تحيطون بكل دقيقة وجليلة وليس لكم عذر الجهل ، والوثائق والأدلة تحت أسماعكم وأبصاركم .

إن الأمر يتعلق بنا اليوم ونحن بحاجة إلى أن نعرف وأن نصدق ، إنكم وحدكم بيدكم خلاصنا من هذا الكابوس الجاثم على صدورنا وإنقاذنا من هذا العار الذى ألصق بنا ولكنكم وا أسفاه ساكنون سكون القبر وإنه لتقدير خاطىء إلا يحكم علينا من صمتكم اليوم ، بل من ثورتكم فى نوفمبر الماضى .

---

(١) كان ذلك عام ١٩٥٦ « لجنة كتب ثقافتنا » .

لماذا ؟ لأننا صامتون الآن ، ولأننا سنوضع فى مأزق حقير ، وفى موضع سبق لنا أن تصدينا له نحن أنفسنا بطالعنا السىء . إنها براءة مصطنعة ، وهروب من الحقيقة ، ومجاملة مرذولة ، وعزلة رهيبـــة وصمت مطبق ومشاركة فى الجرم مرفوضة ومقبولة .

وهذا ما أسميناه عام ١٩٤٨ بالمسئولية الجماعية إذ ما كان ينبغى للشعب الألمانى فى تلك الفترة أن يجهل وجود معسكرات التعذيب ، وكنا نقول :

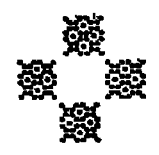
كفى هذيانا . لقد كانوا يعرفون كل شىء ! « وكنا على صواب فقد كانوا فعلا يعرفون كل شىء واليوم فقط نستطيع أن ندرك ذلك ، فإننا أيضاً نعرف كل شىء .

إن معظم الألمان لم يكونوا قد شاهدوا « داشو » ولا « بوشانوالد » ولـكن الأنباء قد تواترت إليهم من أناس شـاهدوا الأسـلاك الشائـكة أو وقعوا على ملفات سرية مطوية فى إحدى الوزارات ، وقد كانوا مثلنا يعتقدون أن هذه الأنباء غير موثوق بها مطعون فى صحتها فكانوا يمسكون عن الخوض فى الحديث وكان يحذر بعضهم بعضا . أنستطيع بعد هـذا أن نجرؤ على الحكم عليهم ؟ أو أن نجرؤ على تبرئة أنفسنا ؟

إن علينـا أن نفرش الأبسطة فى ساحة « الـكونكورد » حتى نحمل العالم على أن ينسى أن هناك أطفالا يسامون سوء العـذاب باسمنا وأننا لانرفع صوتنا استنكاراً لهذه الأهوال البشعة إنه لم يفتنا الأوان بعد لإحباط عمل هؤلاء الذين دأبوا على هتك شرفنا القومى وتلويث سمعتنا ولايزال من الممكن تحطيم الدائرة الجهنمية التى أغلقت علينا من مسئولين غير مبالين ، هذه السذاجة الخبيثة ، هذا الجهل الذى هو المعرفة ، فلننظر

إلى الحقيقة ، فهى التى ستمكن كلامنا من أن يعمل علانية على وقف الجرائم المقترفة ، ولما أن نتبناها وترضى عنها ونحن بكامل وعينا .

من أجل هذا أصبح لزاما على أن أرشد الجمهور إلى كتاب المجندين العائدين ، ففيه الحقيقة المرة ، والهول المفزع ، هولنا نحن ، فنحن لن نستطيع أن نراه من غير أن نتخلص منه ونقضى عليه قضاء مبرما .



الجلادون !

لقد كان الفرنسيون فى عام ١٩٤٣ — حينما كان مصير الحرب معلقاً فى ضمير الغيب — يعانون من القلق والألم . وعلى الرغم من أننا لم نكن نفكر كثيراً فى المستقبل إلا أننا كنا مجمعين على أن أمراً واحداً يبدو مستحيل التحقيق ألا وهو أن يكون فى استطاعتنا أن نجعل رجالا آخرين يضجون مما نعانيه فى تلك الفترة الحالكة .

إن كلمة المستحيل ليست كلمة فرنسية الأصل : فالجزائريون فى عام ١٩٥٨ أصبحوا يسامون سوء العذاب بشكل منظم ومستمر ، والكل على علم بما يحدث من لاكوست إلى مزارعى لافيرون . . ولا يستطيع أحد أن يتكلم أو يخوض فى مثل هذا .

هذا وإن كانت فرنسا تحت الاحتلال أكثر بكماً منها الآن ، بالرغم من أنه كان لها العذر إذا هى حملت السلاح .

لقد حكموا علينا فى الخارج بأننا شعب نسير فى طريق الانحلال والانحدار منذ عام ١٩٢٩ فى رأى بعضهم وفى رأى الآخرين منذ عام ١٩١٨ .

وإنه لقول مرتجل فأنا لا أجزم فى سهولة بانحدار شعب وإن كنت على يقين من خبله وفشله الذريع .

وفى أثناء الحرب عند ما كانت الإذاعة الانكليزية أو المنشورات السرية

تتحدث عن « أورادور » كنا ننظر إلى الجنود الألمان الذين كانوا يتجولون فى الطرقات نظرة بريئة وكنا نقول أحياناً : إنهم على كل ماحدث رجال يشبهوننا فكيف يكون باستطاعتهم أن يفعلوا مافعلوا ؟

وكنا نفخر بأنفسنا لأننا عجزنا عن الفهم .

واليوم نعلم أنه ليس هناك شىء قابل للفهم .

لقد تم كل شىء فى غفلة واستسلام غير ملحوظ وعندما تمكنا من رفع رءوسنا ونظرنا فى المرآة وجدنا وجهاً غريباً منفراً هو وجهنا .

إن الفرنسيين يكتشفون فى غمرة هولهم ، هذه الحقيقة الرهيبة : فإذا لم يكن هناك مايحصن أمة من نفسها لاماض عريق ولا رصيد من الأمانة ولاقوانينها الخاصة بها وإذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا إلى جلادين، فذلك لأن الظرف هو وحده الذى يفصل فى هذا الأمر وفق الظروف يستطيع الفرد فى أى مكان وفى أى زمن أن يتحول إلى ضحية أو إلى أن يكون جلادا .

إن الذين استشهدوا من غير أن يضطروا إلى أن يسائلوا أنفسهم هذا التساؤل هم السعداء . « أترانى أعترف إذا هم نزعوا أظفارى ؟ » وأسعد من هؤلاء ، وأولئك الذين لم يشبوا عن الطوق بعد ولم يضطروا إلى أن يسائلوا أنفسهم هذا السؤال الآخر :

« ما الذى أنا فاعله ؟ إذا تراءى لأصدقائى وإخوانى فى امتشاق السلاح أو رؤسائى إلى انتزاع أظفار عدو أمام ناظرى ؟ »

وهؤلاء الشباب الذين يزج بهم فى المواقف الحرجة ، ماذا يعرفون عن أنفسهم ؟

القرارات التى تتخذ هنا ، يظنون أنها عندما يحين الأوان ستبدو لهم مجردة هواء ، وإن وضعا غير مرتقب سيعيد النظر فى قضيتهم كلها من جديد وان عليهم أن يقرروا هناك وحدهم ، مصير فرنسا ومصيرهم . وها هم أولاء يروحون وآخرون يفدون وقد أقروا بعجزهم عن إمكان التغيير فاحتفظ أغلبهم بالصمت وقد انطوت أضالعهم على الحقد والموجدة ثم يتولد الخوف من النفس ومن الغير ويجتاح جميع الأوساط ويلم جميع الفئات فإذا الضحية والجلاد ليسا إلا صورة واحدة هى صورتنا .

وفى الحالات القصوى ، تكون الطريقة الوحيدة للامتناع عن تمثيل أحد هذين الدورين هى أن نطالب بالآخر .

والاختيار بين هذين الأمرين لا يفرض على الفرنسيين وهو لم يفرض حتى الآن ، ولكن عدم التحديد هذا يثقل كاهلنا : وبسببه تكون « الجرح والسكين » معا فالهلع من أن نكون السكين والفزع من أن تصبح الجرح وكلاهما يتبادلان التأثير والقوة وتصحو ذكريات راقدة

فمنذ خمسة عشر عاما ، كان أشجع المقاومين يخشون الألم أقل مما كانوا يخشون استسلامهم . وكانوا يقولون :

حين يغشى الضحية الصمت فإنها تنقذ كل شىء ، وحين تتكلم فليس لأحد الحق فى أن يحكم عليها ، حتى الذين لم يتكلموا . ولكن الضحية تتزوج جلادها انها امرأته ، وهكذا يغرق هذا الزواج فى ليل الوضاعة وقد كر هذا الليل الوضيع ، عاد إلى « البيار » فى كل ليلة . وإنه فى فرنسا سواد قلوبنا وإن أية دعاية هامسة خافتة تتيح لنا أن نسمع منها أن جميع الناس يتكلمون .

هذه هى ألوان التعذيب التى تبررها الجهالة الإنسانية فما دام كل واحد منا خائنا بالفطرة ، فالجلاء الكامن فى كل منا يخطئه الانزعاج والتأثر وخاصة أن عظمة فرنسا تملى علينا ذلك . . وأصوات ناعمة معسولة تهمس لنا ذلك كل يوم :

المواطن الصالح هو ذو الضمير الطيب أما صاحب الضمير الشرير فلابد أن يكون من دعاة الهزيمة والتردد .

وسرعان ما تتحول الدهشة إلى قنوط . فإذا كانت الوطنية هى أن نلقى بأنفسنا بين مخالب الضعة ، وإذا لم يكن هناك أى حاجز فى أى مكان يحول بين الأمم أو الإنسانية جميعها وبين أن تتردى فى الحيوانية ،فلماذا لماذا تبذل هذا الجهد لنحافظ على إنسانيتنا ؟ أن الحيوانية هى حقيقتنا .

ولكن إذا لم يكن أى شىء آخر صحيحاً ، إذا كان لا بد من الإرهاب أو أن نموت رهبة وخوفاً ، هذا الجهد الذى تبذله من أجل الكفاح فى سبيل العيش ومن أجل أن نكون وطنيين ؟ .

لقد صبوا هذه الأفكار فى رءوسنا صباً ،وأنها لأفكار يلفها الغموض ويشملها الخطأ .إنها تخرج كلها من هذا المبدأ نفسه :

الإنسان هو الذى لا إنسانية فيه ولمن هدفهم من وراء ذلك ، هو اقناعنا بعجزنا ، وأن تصل هذه الأفكار إلى هدفها مادمنا لا نواجهها والحق أنه يجب أن يعرف عنا فى الخارج : أن سكوتنا لا يعنى قبولنا لما يجرى فى الجزائر.إن صمتنا مرده إلى الكابوس الذى يصنعونه ويجسمونه ويوجهونه ولقد كنت أعرف ذلك من قبل . ولكنى كنت فى انتظار الدليل القاطع وهأنذا قد وجدته .

منذ حوالى خمسة عشر يوما ، ظهر كتاب فى إحدى دور النشر تحت عنوان (الاستجواب) ومؤلفه هو (هنرى أليج) الذى لما يزل معتقلا إلى اليوم فى أحد سجون الجزائر ، وهو يروى ، من غير تعليق أو تعقيب وبدقة فارطة أنواع الاضطهاد والتعذيب التى اكتوى بها من أجل إجباره على أن يعترف . ولقد (اعتنى) الجلادون به كما وعدوه بذلك هم أنفسهم : فقاسى عذاب العطش ، تماما كما كانوا يفعلون أيام (البرنفيلية) .

وأضيف إليه هذه الأفانين الجديدة التى أدخلها عصرنا المتمدين ، عذاب الكى بالنار وحرقة العطش .

إنه كتاب لا تنصح النفوس الحساسة ذات المشاعر المرهفة بالاطلاع عليه . والواقع أن الطبعة الأولى — وهى عشرون ألفاً — قد نفذت . وبالرغم من أن هناك طبعة ثانية تمت على عجل ، فقد عجز الناشر عن تلبية الطلب الملح ، فان بعض المكتبات تبيع من النسخ ما يتراوح بين خمسين ومائة فى اليوم .

والذين يجسرون على الإدلاء بشهاداتهم حتى الآن هم الذين قضوا حياتهم مع إخوتهم ولإخوتنا من الجلادين ، ولم يتبينوا من الضحايا غالباً سوى صراخهم وأنينهم من عذاب جراحهم وآلامهم .

وكانوا يصفون لنا هؤلاء الساديين الذين استعذبوا تعذيب الناس ، وكيف انحنوا يمزقون الأجسام الطاهرة .

ولكن ما الفارق بيننا وبين هؤلاء الساديين ؟

لا شيء مادمنا نسكت على جرائمهم : وكان غضبنا يبدو لنا صادقاً . ولكن هل كنا نحتفظ به لو كنا قد عشنا هناك ؟ أما كان هذا الغضب يتحول إلى استسلام مر كئيب ؟

لقد كنت من ناحيتى أعكف على القراءة لأن واجبى يدفعنى إلى ذلك وكنت أتبرم أحياناً بعض ما أكتب، وكنت أنظر بعين الاحتقار إلى هذه القصص التى تضعنا فى قفص الاتهام من غير مشقة ولا رحمة ، والتى لم تكن تترك لنا أى بصيص من أمل !

أما مع هذا الكتاب «الاستجواب» فإن كل شىء تبدل : إن «أليج» يوفر علينا مضاضة اليأس وحرقة الخجل لأنه ضحية ولأنه كان فوق مستوى العذاب أو فوق مستوى البشر .

وهذا التحول لا يتم من غير روح السخرية والحزن . لقد عذبوه باسمنا ، وإنا لنسترد بعظمته بعضاً من فخارنا : إننا فخورون بأن يكون فرنسياً .

إن القراء يتقمصونه بشغف ، ويظلون معه حتى قمة العذاب والألم ، ويصمدون وإياه أمام الوحـــدة والعرى أتراهم جديرين ؟ أترانا جديرين بذلك حقاً وحقيقة ؟

وتلك قضية أخرى ؛ أما الشىء المهم الذى يعتد به هو أن الضحية تعمل على تحررنا إذ تقودنا إلى أن نكتشف أنفسنا كما اكتشفت هى نفسها ، إننا فى مقدورنا أن نتحمل كل شىء . . ولزاماً علينا أن نتحمل .

إننا نذهل وتدور رؤوسنا عندما نطل على هذه الهوة .. هوة الحيوانية.

ولكن يكفى أن يطالبنا رجل صارم عنيد يضطلع بمهمة الإنسان لينقذنا مما أصابنا من دوار .

إن « الاستجواب » لم يكن بكل بساطة إلا جريمة خسيسة بشعة ارتكبها جناة والغون فى الإثم ، ضد بشر آخرين ، وباستطاعة سواهم ومن واجبهم أن يقضوا عليها .

إن انعدام الإنسانية لايوجد فى أى مكان ، إلا فى ظل الـكابوس الجاثم على الصدور الذى يتولد من الخوف .

والحق أن شجاعة ضحية واحدة وهدوءها كانت السبيل إلى صحوتنا لنستكشف عن حقيقتنا .

إن « أليج » يستل التعذيب من الليل الذى يواريه . فلنقترب لننظر إليه فى وضح النهار .

فما هؤلاء الجلادون أولا ؟

أهم ساديون ؟ أم هم ملائـكة أطهار قد تملـكهم الغضب ؟

أم هم سادة الحروب ذوو الأهواء الراعدة ؟

إذا صدقناهم وآمنا بما قالوا فهم خليط من كل أولئك !

ولـكن الواقع أن « أليج » لا يصدقهم .

إن ما نستخلصه من الأحاديث التى ينقلها إلينا أنهم يودون أن يقنعوا أنفسهم ويقنعوا الضحية بجبروتهم وقدرتهم على الظلم . فهم أحياناً بشر أعلون يضعون ناساً تحت رحمتهم ، وهم أحياناً أخرى رجال عتاة أقوياء وكل إليهم أمر ترويض أقسى اليهم وأضراها توحشاً ، وأكثرها تراخياً واستسلاماً ، البهيمية الإنسانية .

والمعلوم أنهم لاينظرون إليها من قرب :

فالمهم عندهم أن يشعروا السجين بأنه ليس من جنسهم : ولذلك يجردونه من ثيابه ويربطونه بشدة ويهرأون جسده . ويمر به جنود جيئة وذهوباً يصبون عليه اللعنات ويرمونه بأقذع السباب ويتوعدونه بالعذاب الأليم المقيم .

ولـكن أليج المرتجف من البرد القارس الموثوق إلى خشبة مازال

سوداء لزجة من آثار قيء قديم يعيد هذه المساخر والمآتم الى حقيقتها التي تستوجب الرثاء .

إنها مسرحيات يقوم بأدوارها ممثلون حتى فأصابتهم الفاشية الجامحة مسرحية . .

وهذا القسم الذي أقسموه بأن يقضوا على الجمهورية مسرحية أخرى..

وكلمات « ضابط الجنرال م » التي تنتهي بقوله (لم يبق لكم إلا أن تنتحروا) هي مسرحية أيضاً .

إنها مساخر فجة ، يعاد تمثيلها كل ليلة بلا قناع أمام كل سجين ، ولئن توقفت فترة ما فلضيق الوقت : ذلك أن هؤلاء الفعلة المرعبين مثقلون بالأعباء ، وهم مرهقون لأن المساجين يصطفون واقفين بالقرب من خشبة التعذيب ، ولابد من وثقهم بالحبال وفك قيدهم ومرافقة الضحايا من غرفة تعذيب إلى أخرى .

ومن ينظر بعين ألييج الى هذه الخلية القذرة ، يدرك أن الجلادين مرهقون بالعمل كل الإرهاق .

وقد يحدث أن يصطنعوا الهدوء وأن يتعاطوا الخمر . وقد تراخوا فوق جسد معذب، ثم تراهم ينتفضون ، ويهبون واقفين على أقدامهم، ثم يركضون على غير هدى وكأنما أصابهم مس من الشيطان وينطلق من أفواههم أقذع السباب ثم يصرخون غضباً ، انهم عصبيون من الطراز الأول ، يقبضون على ضحايا كثيرين ، واعتقادهم الجازم أنهم سيعترفون لهم من الركلة الأولى وهؤلاء السجانون على جانب من الخبث والجنون لفرط ما يستبد بهم من الغضب وهذا مؤكد ، ولكنهم ليسوا ساديين . انهم في عجلة عاجلة ، وهذا ما ينقذهم حقاً من الجنون .

إن كلا منهم يقف على قدميه متماسكا من جراء السرعة المكتسبة ، فعليه أن يجرى باستمرار أو يخور غير أنهم يحبون العمل المتقن . إنهم عند اللزوم يدفعهم الحرص على تنفيذ الأوامر وإرضاء الضمير المهنى إلى درجة ارتكاب جريمة القتل .

وهذا ما يثير ويحز فى النفس فى قصة أليج . إن وراء هؤلاء السفاحين الجناة أو المضحكين عتوا أو قساوة تتجاوزهم وتتجاوز رؤساءهم أنفسهم.

ولقد كان من الممكن أن يكون حظنا كبيراً لو كانت هذه الجرائم يرتكبها حفنة من الحانقين الحاقدين ولكن الحقيقة هى أن التعذيب يخلق الجلادين .

وبعد هذا كله ، فإن هؤلاء الجنود لم يكونوا قد انخرطوا بعد فى فرقة الصفوة المختارة التي تقوم على تعذيب العدو المهزوم . ويصف لنا أليج فى بضعة أسطر أولئك الذين خبرهم عن يقين ، وهذا يكفى لتسجيل مراحل التغير .

هناك الجلادون الأصغر سناً العاجزون الذين يتمتمون باضطراب وجزع « هذا فظيع » عندما يضىء مصباحهم الكهربى أحد المسجونين ثم إن هناك معاونى الجلادين الذين لم يشتركوا بعد فى العمل ، وهم يمسكون بالمساجين ويدفعونهم فى عنف وقسوة . . وهناك من ينتظر إسناد هذا العمل إليه إنهم جميعاً قد غمرتهم الدوامة ، ولا معاذير لهم على الإطلاق وهناك ذلك الأشقر من المنطقة الشمالية « ذو الوجه السمح الحلو الذى يستطيع أن يتحدث عن جلبات التعذيب أخضع لها اليج كما لو كان يتحدث عن مباراة شائقة يذكرها فى نشوة وعذوبة وفى غير مشقة : كما يفعل بالنسبة

لبطل من « راكبي الدراجات . »

ولقد رآه « البيج » بعد أيام من سجنه يقتل على السلم أحد المسلمين ، ووجهه يغلى بالحقد والكراهية .

وهناك الذين يتسلون برؤية الانتفاضات التي تعرو معذباً بالكهرباء ، ولكنهم لا يحتملون سماع صراخه وأنينه .

وهناك أخيراً المجانين الذين يطوفون ويدورون كورقة ميتة فى دوار فورانهم وعنفهم .

وليس فى هؤلاء جميعاً من هو موجود بذاته . وليس فيهم من سيبقى كما هو : إنهم يمثلون لحظات تحول لا مفر منه .

فهناك فرق واحد بين أفضلهم وأدناهم فأولئك « زرق » وهؤلاء قدامى . وسينتهى الأمر بهم جميعاً إلى الرحيل ، وإذا استمرت الحرب فسيخلفهم آخرون ؛ شقر من الشمال أو سمر قصار من الجنوب ، يقومون بمهام التعذيب ويعتادون العنف نفسه وتتملكهم العصبية ذاتها .

وفى هذه القضية لايعول على الأفراد : فإن هناك حقداً وضيعاً . حقداً موغلا فى الإنسان ينقض فى وقت واحد على الجلادين وعلى الضحايا فينحط بهم معاً ويحط بعضهم بسبب بعض . وليس العذاب إلا صورة هذا الحقد وقد اندرج فى نظام وخلق لنفسه سبله الخاصة .

وحين يثار هذا الوضع فى المجلس الوطنى . تثور الضجة ويكبر الصخب

والضجيج ، ويعلو نباح بعض الأعضاء: « إنكم تهينون الجيش ! » وينبغي أن نسأل هذه الجراء النابحة مرة أولى وهي الأخيرة .

« ما دخل الجيش هنا » ؟ إن من المؤكد أن التعذيب يقوم أيضاً في الجيش كما يقوم بين المدنيين وإن لجنة الوقاية لم تخف منا ذلك في تقرير لها هزيل ، وبعد ذلك : « أهو الجيش » الذي يعذب .

إنها حماقة ! أيظنون أن المدنيين يجهلون الوسائل الصالحة ؟ إذا لم تكن القضية إلا هذا فلنمنح شرطة الجزائر ثقتنا . ثم إذا كانت هناك حاجة إلى التصريح باسم رأس عصابة الجلادين فلقد سماه المجلس الوطني كله ، فليس هو الجنرال « س » كما أنه ليس الجنرال « ا » ولا الجنرال « م » الذي ذكره أليج : بل هو السيد لاكوست صاحب السلطات المطلقة فكل شيء يتم بعد مشورته وبإملائه سواء في « بون » أو في « وهران » : أن جميع الذين سقطوا تحت وطأة الألم وويل العذاب في مبنى « البيار » أو في مقصورة «س» إنما قضوا نحبهم بإرادته ، ولست أنا الذي يقول ذلك : إنهم النواب والحكومة .

والواقع أن القرح يتسع . فهو قد جاوز البحر ، بل إننا نقول في غير تردد إن الاستجواب يجرى في بعض السجون المدنية في فرنسا ذاتها . ولا أدرى إذا كانت هذه الشائعة حقيقة ولكن لابد أن انتشارها قد أثار السلطات العامة ، بدليل أن النائب العام ، في قضية ابن صدوق ، قد سأل المتهم علنا إذا كان قد عذب ، وقد كان الجواب بالطبع مصروفاً من قبل لا إن التعذيب ليس مدنياً أو عسكرياً ولا فرنسيا على وجه التخصيص ، إنه مرض يسود العصر كله ، فقد عرف الشرق والغرب جلادين . فلم يمض طويل وقت على تعذيب « فاركاس » للمجرمين ، ولا يخفى البولونيون

لن الشرطة عندهم كانت تلجأ قبل بوزنان إلى الاستجواب . أما ما كان يحدث في الاتحاد السوفيتي في عهد ستالين فإن تقرير خروشوف هو وحده آية على ذلك . . . واليوم أتى دور قبرص والجزائر .

والحقيقة أن هتلر لم يكن إلا رائداً من رواد هذا العصر .

هذا التعذيب الذى يتوارى بميوعة أحيانا ولكنه يطبق بانتظام وراء ستار من الديمقراطية يمكن تعريفه بأنه أداة نصف سرية . فهل تتوحد أسبابه في كل مكان ؟ كلا ، بلاشك ولكنه يقابل في كل مكان بالنفور والاشمئزاز . والحق أنه لا أهمية لذلك ، فليس لنا أن نحكم على العصر ولنكتف بأن ننظف أمام بابنا ، ولنحاول أن نتفهم ما الذى أحاط بنا ، نحن الفرنسيين .

إنكم تعرفون مايذكر أحياناً من صور التبرير حتى لايدان الجلادون ، فهم يرددون أنه لابد من تعذيب بعض الناس لكى يدلوا باعترافاتهم التى قد تحفظ مئات الأرواح . وهذا نفاق لا يعوزه دليل . فإن «اليج» لم يكن إرهابيا ، وكذلك « أودين » . فهو معتقل بحجة أنه يعمل على الإخلال بأمن الدولة ، ولإعادة تشكيل جمعية منحلة .

أفمن أجل المحافظة على الأرواح البشرية أحرقوا ثدييه ، وشعر عضوه التناسلى ؟ .

لا : لقد أرادوا أن ينتزعوا منه عنوان زميله الذى آواه . ولو تكلم لزجوا بشيوعى آخر خلف القضبان الحديدية :

هذا كل مافى الأمر .

ثم إنهم يعتقلون كل من يصادفهم ... فكل مسلم تعرض للاستجواب ، فنهم من يقدم شهادة كاذبة أو يتهم نفسه سلفاً بجريمة ما تخلصا من العذاب .

أما أولئك الذين يستطيعون أن يتكلموا ، فالمعروف أنهم يصمتون كلهم أو جلهم فلا « أودين » ولا « أليج » ولا « جروج » قد فتحوا أفواههم .

ولا شك أن جلادى «البيار» أوسع معرفة منا فى هذا الصدد .

وقد قال أحدهم بعد الاستجواب الأول «لاليج» .

« لقد كسب الجولة الأولى على كل حال ليتيح لرفاقه الوقت الكافى للتراجع » .

وقال ضابط بعد بضعة أيام :

« لقد استقر فى رؤوسهم منذ عشر سنوات ، أو خمس عشر سنة ، إنهم إذا قبض عليهم ، فيجب ألا يقولوا شيئاً : وليس هناك من وسيلة لاقتلاع هذا التصميم من رؤوسهم» .

لعله كان يعنى الشيوعيين : ولكن أتراهم يظنون أن مناضلا فى جيش التحرير الوطنى هو من غير هذه الطينة ؟ .

إن أعمال القسوة هذه لا تعود إلا بنتائج سيئة ، ولقد اقتنع الألمان أنفسهم بذلك عام ١٩٤٤ . إنها ترهق الأرواح البشرية ولا تعمل على حمايتها .

ومع ذلك فإن الحجة ليست كلها خطأ : وسيان هذا أم ذاك فانها تفضح

وسالة التعذيب : إن الاستجواب الذى هو أداة سرية أو نصف سرية ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسرية المقاومة .

وفى الجزائر،انتشر جيشنا فى كل بقعة فيها : فنحن نملك الجنود والسلاح والمال ، أما الثوار فلا شيء يملكونه إلا الثقه وتأييد الشعب لهم ، ولقد عرفنا خبر الاغتيالات التى تمور بها المدن ، والكمائن التى تقام فى الريف .

وجبهة التحرير الوطنية لم تحدد نشاطها وإنما هى تفعل مافى استطاعتها ومقدورها . إن نسبة قواها إذا ما قورنت بقواتنا فإننا نعذرها عندما تقوم بهجماتها الفجائية . فخطتها أن لا ترى ولا تنتظر ولا تمس ، فشعارها « إضرب واهرب » حتى لا يقضى عليها . ومن هنا كان ضيقنا : إننا نجالد خصما سريا .

فهذه قنبلة تنفجر فى الشارع ، وهذه رصاصة تنطلق فتجرح جندياً من جنودنا فى الطريق ، فإذا سارعنا إليه لم نجد أحداً إلى جواره وإن كان لابد أن يعثر على مسلحين لم يروا شيئاً .

إن الحرب الشعبية ، حرب الفقراء ضد الأغنياء . تتميز بالصلة الوثيقة التى تشد بين الوحدات الثائرة وبين الشعب ، وفى الوقت نفسه يصبح هذا الفيض من البؤساء بالنسبة للجيش النظامى والسلطات المدنية ، العددالیومی الذى لا يعد ، ويقض مضجع فرق الاحتلال من صمت أخرس صنع يديها فتدرك أن هناك إرادة للصمت لا يمكن السيطرة عليها كسريعم كل مكان .

وكذلك لن يستمر الأغنياء فى إحساسهم بانهم مطاردون وسط فقراء صامتين ، وتجد قوى الأمن نفسها مرتبكة ، بل عاجزةعن مواجهة العمليات

الحربية الصغيرة إلا بالتطهير وحملات الانتقام ، ومواجهة الإرهاب بالإرهاب على أن هناك شيئاً خفياً : يجب دائماً الاستجواب والتحرى ، وانتزاع الكلام فى كل مكان ومن أى إنسان .

إن التعذيب غضب لا طائل تحته أوجده الخوف : يراد انتزاع سر الجميع من حلق يعور بالصراخ وينزف الدم . وأنه لعنف لا مبرر له . وسواء أجبرت الضحية على الكلام وانتزع منها الصمت أو لقيت مصرعها بين جحيم العذاب فان السر الذى لا حصر لعدده موجود فى مكان آخر . . . إنه بعيد عن متناولهم . .

وهنا ينقلب الجلاد إلى سيزيف : فإن عليه إذا طبق الاستجواب أن يبدأ دائماً من جديد .

ولكن هذا الصمت وهذا الخوف وهذه الأخطار التى لا ترى قط ، وهى ماثلة لا تريم ، لا يمكن أن تفسر علة ضراوة الجلادين وإرادتهم فى أن يسوقوا ضحاياهم إلى الضعة ومن ثم إلى الحقد البشرى إذا استولى عليهم على غير رضاهم .

إن القاعدة هى أن يتقاتل الناس ، يتقاتلون من أجل مصالح جماعية أو فردية .

أما فى التعذيب ، هذه المباراة الغريبة ، فإنما يقيس الجلاد فيها نفسه بالضحية من أجل صفة الإنسان وكل شىء يحدث كما لو أنهما لا ينتسبان إلى الجنس البشرى .

إن هدف الاستجواب لا يقتصر على إجبار الضحية على الكلام وعلى

الخيانة : بل على الضحية أن تشير إلى نفسها بالصراخ والاستكانة على أنها بهيمة بشرية ، فى عيون الجميع وفى عينيها بالذات .

يجب على خيانتها أن تحطمها وتخلص المجتمع منها أبد الدهر .

وإن من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط اجباره على الكلام ، وإنما هو قد أدين إلى الأبد بأنه أدنى درجة من الإنسان .

ولا شك فى أن تعميم هذا الشرط سمة من سمات هذا العصر . ذلك أن الانسان بحاجة إلى أن يصنع ، إن إرادته فى أن يكون حرا لم تكن فى أى وقت أقوى منها الآن ولا أعمق وعيا ولذلك الاضطهاد لم يكن أعنف ولا أفتك سلاحا مما هو حادث اليوم .

والمفارقات فى الجزائر غير قابلة للتخفيف : فكلا الفريقين المتصارعين يطالب بطرد الآخر طرداً كلياً .

ولقد اغتصبنا من المسلمين كل شىء وحرمناهم كل شىء حتى لغتهم .

وقد أوضح « ميمى » أن الاستعمار يتحقق بالقضاء على الوطنيين ، لأنهم لم يعودوا يملكون شيئاً ، فقد صفيت حضارتهم ؛ وكذلك حرمناهم حضارتنا .

لقد طلبوا الانضمام فقلنا لهم لا ونحن نتساءل :

بأية معجزة ترانا نستبق الاستغلال الاستعمارى إذا كان المستعمرون يتمتعون بالحقوق نفسها التى يتمتع بها المستعمرون ؟ .

ان النظام المتبع كان يدفع هؤلاء المساكين البائسين الذين أضناهم الجوع والحرمان إلى تخوم الصحراء .

وهناك انخفض مستوى معيشتهم بسبب كثرة المواليد سنة فى إثر سنة وجدب الأرض وأخير حينما اندلعت ثورتهم تخلصا من هـذا البؤس الذى غشيهم واستبدبهم قلنا عليهم هؤلاء ليسوا بشراً فإما أن يلفظوا أنفاسهم أو يؤكدوا إنسانيتهم فإذا هم يستغنون عن ثقافتنا ويتخلون عن قيمنا وتقدمنا المزعوم . وتساوى عندهم أن يطالبوا بصفة الإنسان وأن يرفضوا الجنسية الفرنسية .

ولم يقتصر هـذا التمرد على تحدى سلطان المستعمرين ، وإنما راحوا يكافحون من أجل وجودهم المهدد بالضياع .

إن هنـاك حقيقتين متكاملتين لا ينفصلان فى نظر معظم الاوربيين المستوطنين فى الجزائر .

ان المستعمرين هم ذوو الحق المطلق « الالهى » أما السكان الاصليون فهم أقل مستوى من البشر وتلك هى ترجمة اسطورية لواقع حقيقى ، مادام ثراء الأولين يقوم على بؤس الآخرين وهـكذا يفرض الاستعمار أن يكون المستغل تبعاً للمستغل .

ثم ان هذه التبعية على صعيد آخر هى فى صميم النزعة العنصرية ، وذلك هو تناقضها العميق ، وشرها المرير

ان الأوربى الجزائرى يرى أن صفة كونه إنساناً يعنى قبل كل شىء تفوقه العنصرى على المسلم .

وإذا اعتبر المسلم نفسه كإنسان يقف على قدم المساواة مع المستعمر ،

ترى ماذا يكون الموقف ؟ إن المستعمر يشعر أنه قد طعن فى كيانه وحط من قدره .

وقد يفكر أحياناً فى إبادة هؤلاء ولكن ما عساه يصنع من غير أيد عاملة رخيصة من السكان الأصليين ؟ وإذا كان المسلمون حقا بشراً مثلهم، فقد ضاع كل شيء ولم يبق هناك حاجة حتى إلى إبادتهم .

ولكن هناك حلا آخر إذا كان الأمر يتطلب السرعة .

إنهم يجب أن يسقوا الهوان وتفرض عليهم الذلة والمسكنة . وكذلك يجب عليهم أن يروضوا ويقاوموا فى عنف ، فالجزائر لا تتسع لجنسين بشريين ، وإنما هى تتسع لواحد منهما فحسب .

إننى لا أقول إن الأوربيين هم صانعو هذا العذاب ولا محرضو السلطات المدنية والعسكرية على اقترافه . بل على العكس .

. لقد فرض التعذيب نفسه تلقائياً حتى أصبح أمراً مألوفاً عاديا . غير أن الإحن التى تتمثل فيه إنما تعبر عن العنصرية ، لأنه إنما يراد به القضاء على الإنسان نفسه بكل قيمه الإنسانية من أمانة وإرادة وشجاعة . القيم التى يطالب بها المستعمر . .

ولكن إذا استخف الغضب بالأوربى إلى درجة أن يحتقر صورته نفسها فذلك لأن عربياً قد عكس هذه الصورة .

وهكذا يبدو من هذا الزوج الذى لا يريد انفصالا ، المستعمر والمستعمر ، الجلاد والضحية ، أن الثانى ليس إلا تبعاً للأول .

إن الذى لاشك فيه هو أن الجلادين ليسوا مستعمرين،ولا المستعمرون جلادين .

إن هؤلاء فى أغلب الظن شبان أتوا من فرنسا حيث عاشوا هناك من غير أن يهتموا بالمسألة الجزائرية ولكن الحقد المشبوب هناك أوجد مجالا للقوى المغناطيسية ، لجذبهم فى دائرة استعباده .

إن هـــذا كله إنما يوحى به مافى قضية « اليج » من بصيرة هادئة واعية . فإذا لم يكن يحمل شيئاً آخر فينبغى أن نحفظ له عرفاناً عميقاً بالجميل ، غير أنه قد أتى بأ كثر من ذلك فهو حين أخاف جلاديه ، إنما انتصر لإنسانية الضحايا والمستعمرين ضد العنف المحموم الذى ينطوى عليه بعض العسكريين وضد عنصرية المستعمرين .

وأرجو ألا تعنى كلمة « ضحايا » هـــذه نوعا لا أفهمه من الإنسانية البا كية :

«إن اليج» وسط هؤلاء القواد الشبان الصغار الفخورين بفتوتهم وقوتهم وعددهم هو الوحيد الصامد الوحيد القوى حقاً . وبوسعنا نحن أن نقول إنه دفع أغلى ثمن ليؤكد حقاً معنوياً ، من أجل أن يظل إنساناً بين البشر .

ولـكنه لم يفـكر فى ذلك .

ولهذا فإننا نقف مبهورين أمام هذه الـكلمات التى رددها فى نهاية أحد فصول كتابه :

(ووجدت نفسى تغمرنى السعادة وأزهو فخورا لأننى لم أنحن ولم أتخاذل ولقد كنت على يقين من أننى سأقاوم إذا عاودوا الـكرة . وسأ كافح حتى النهاية ، وإننى لن أقدم على الانتحار حتى لايبلغوا أملهم المنشود ، وينهوا مهمتهم العسيرة) أجل انه بطل ذو قلب حديد ، استطاع أن يلقى الرعب فى أفئدة الشياطين الحانقة الهادرة .

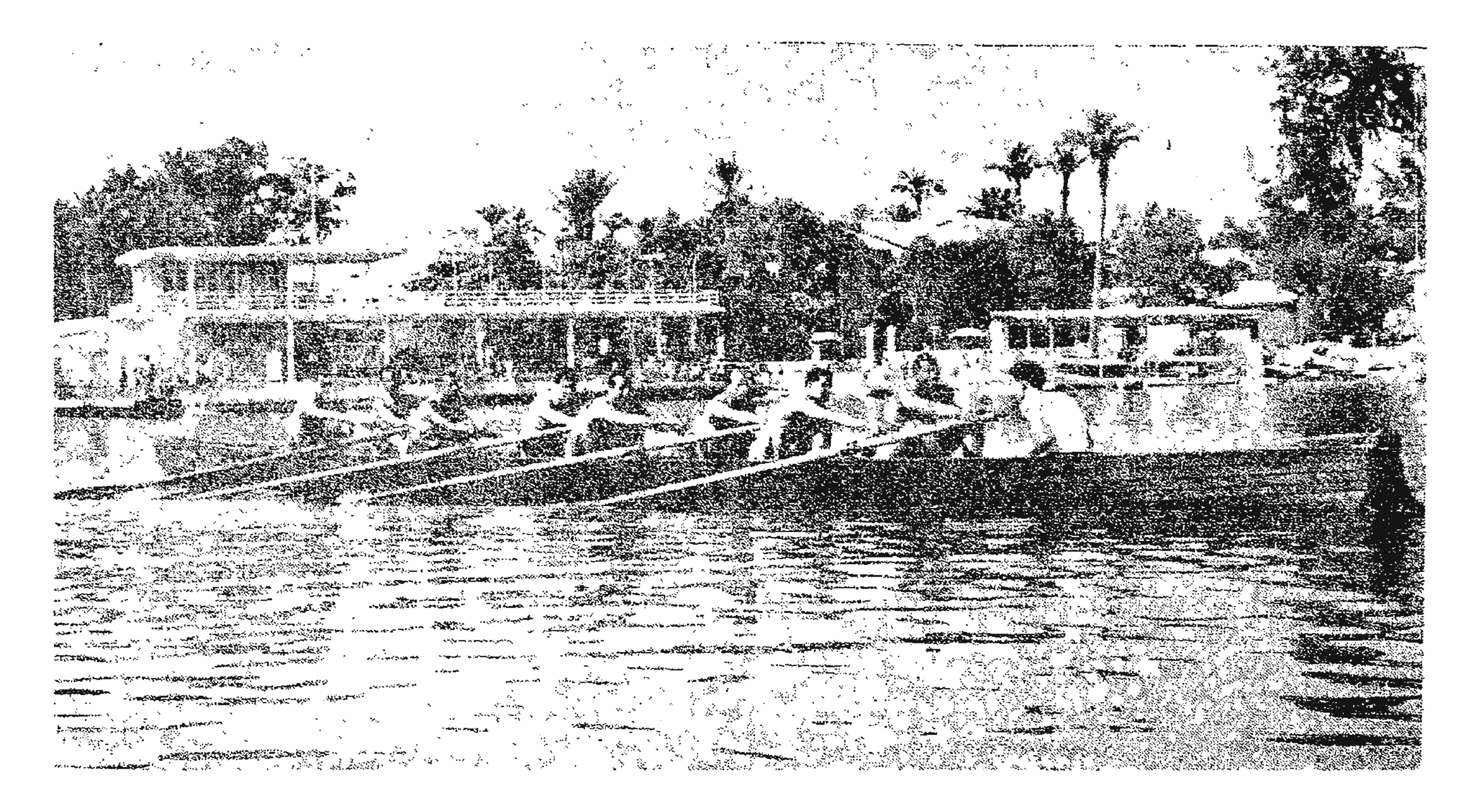
إننا نلمس فى أحاديثهم سورة الغضب وكأنما يحاولون أن يقلبوا العالم رأساً على عقب إذا ما انتصرت الضحية .. فهم يعلنون أسفهم على زوال السيطرة وحقوق السيادة ، وأخيرا تجمد الأجنحة الملائكية أو الشيطانية ويتساءل كل منهم (أتراني أستطيع المجالدة إذا عذبوني ؟)

ذلك أن نظاما من القيم قد حل بمحل النظام الأول ساعة الفوز والانتصار .
ولا حاجة إلى أكثر من دقائق ليصاب الجلادون أنفسهم بالدوار ، والحقيقة أن رءوسهم يانعة القطوف ، وأن العمل أكبر منهم ، ثم إنهم يستهولون مايرتكبونه من جرائم ولا يكادون يصدقون مافعلوه .

وبعد فما جدوى اقلاق ضمير الجلادين ؟ إذا فكر أحدهم فى أن يقول شيئاً بادره الآخرون بقولهم :
إذا فقدنا إنساناً ، فاننا نجد عشرة بدلا منه .

إن شهادة « أليج » تبدد أوهامنا : لا ، إنه لا يكفى أن ننزل العقاب ببعض الأفراد أو نعيد تربيتهم ، ولن نستطيع وصف الحرب الجزائرية بأنها حرب تقوم على مثل إنسانية لأنها قامت أساساً على التعذيب . . هذا التعذيب الذى أملته الظروف وشددت نكيره النزعات العنصرية . .

وإذا كنا نريد أن نوقف هذه الأعمال الإجرامية التى تنفر منها الإنسانية ، وأن ننتشل فرنسا من وصمة العار ، وننقذ الجزائريين من هذا العذاب الوحشى ، فليس هناك إلا سبيل واحد هو أن نفتح باب المفاوضات على مصراعيه وندخل إلى السلام من أوسع أبوابه ...



نادى التجديف بالاسماعيلية

تشجيع هيئة قناة السويس للمشروعات السياحية بمنطقة القناة

أدلى المهندس محمود يونس ، رئيس هيئة قناة السويس لجريدة الأخبار بحديث تناول فيه موضوع جزيرة البلاح التى تقع وسط القناة بين مدينتى بور سعيد والاسماعيلية وإمكان جعلها مركزاً سياحيا يستطاع استغلاله من الناحيتين السياحية والاقتصادية فى المنطقة .

فمن المعروف أن قافلةالسفن القادمة من الشمال تتحرك من بورسعيد فى اتجاه الاسماعيلية فىالساعة السابعةصباحا فتبلغ جزيرة البلاح فى حوالى الساعة الثانية عشر ظهراً وكى تستطيع القافلة القادمة من الجنوب فى اتجاه بور سعيد مواصلة سيرها عبر منطقة البلاح ، حيث لاتتسع القناة لمرور القافلتين فى وقت واحد ، ترسو سفن القافلة الأولى، ويتراوح عددها بين ١٥و٢٠ سفينة ، فى محاذاة الشاطىء الغربى للجزيرة طيلة الفترة الكافية لمرور القافلة الأخرى

ومن هنا نشأت فكرة استصلاح جزيرة البلاح على أسس سياحية وذلك بإقامة مطعم شرقى فاخر بجانب مقاصف وملاهى ومحلات لعرض وبيع السلع المحلية حيث يستطيع عابرو القناة قضاء فترة توقف القافلة عند الجزيرة فيها.

وقد أعرب المهندس محمود يونس عن استعداد الهيئة للتعاون مع الجهات المعنية فى سبيل تحقيق مثل هذا المشروع وغيره من المشروعات السياحية التى تعود بالفائدة على المنطقة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية .

اخترنا لك

مع الباعة فى كل مكان



تأليف

الدكتور مصطفى السباعي

الثمن ١٠ قروش

اخترنا للطالب

مع الباعة فى كل مكان

فى ذكرى البطل
جلال الدين دسوقى

بقلم

على الجمبلاطى

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦٠ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

روايات عالمية

تقدم يوم السبت القادم



قصة النضال الهائل على عرش انجلترا
بين اليصابات ومارى ستيوارت

بقلم الكاتب الانجليزى الكبير

ا. بارنجتون

الثمن

stx.
.03
514
Bibliotheca Alexandrina
0683331

الكتاب ١٢٤ الثم

يصدر يوم الخميس ٩ نوفمبر « تشرين الثا

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
ت ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٢١٦٢٥